75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

رِحلَة فنشِنسو إلى العِراق

في القرن السابع عشر

ترجمها عن الايطالية وعلق عليها
الاب الدكتور
بطرس حداد

مقدمة المترجم

من الاجانب الذين زاروا العراق ، او حلوا فيه فترة من الزمن ، لسبب ما او آخر ، من دون مذكراته عن الايام التي امضاها في ربوع بلادنا ، ضمنها انطباعاته عن الاشخاص الذين التقى بهم والاماكن التي مر بها . واننا لنجد في كتب الرحلات هذه متعة وفائدة ، اذ نطلع على ما يفكر الغير فينا ، ونكتشف احداثا سها المؤرخ العراقي تسجيلها ، خاصة في الازمنة الغابرة .

وهذه الرحلة التي نقدمها اليوم الى القراء الكرام ، هي واحدة من تلك الرحلات القديمة ، اذ ترجع الى القرن السابع عشر ، وفيها وصف لطيف للحياة الاجتماعية في العراق في ذلك العهد ، وفيها معلومات تاريخية مفيدة .

املنا وطيد بان تكون ترجمة « رحلة فنشنسو » مساهمة متواضعة في الحركة الفكرية في العراق . والله ولي التوفيق .

صاحب الرحلة : هو الاب فنشنسو مارية دي سانتاكاترينا دي سيينا ،
P. Vincenzo Maria di S. Caterina da Siena
وهو ايطالي المنبت ، انخرط في سلك الرهبانية الكرملية ، وفي سنة ١٦٥٦ ارسل في مهمة دينية الى الهند الشرقية ، وبعد ان عاد الى وطنه تسنم بعض المهمات الرسمية في رهبنته ، حتى انتقل الى جوار ربه في ٥ تشرين الثاني سنة ١٦٧٩ ، وكان له من العمر ٥٤ سنة .

مؤلفاته : له رسائل توجيهية للرهبان الكرمليين(١) ، وله هذه الرحلة التي نقلناها الى العربية ، وقد نشرنا منها بعض الفصول التي تبحث عن مدن شمالي ما بين النهرين(٢) ، ونكمل الان نشر القسم الاكبر والاهم من الرحلة اذ يدور الكلام عن العراق مباشرة .

الرحلة : بدات الرحلة في مطلع سنة ١٦٥٦ ، وكان فنشنسو عضوا في وفد غايته الوصول الى الهند الشرقية ، في مهمة رسمية كما اسلفنا . وعندما عاد الى ايطالية ، بعد سنوات ثلاث ، الح عليه اصدقاؤه لكي يدون مذكراته وينشرها ، فنزل عند رغبتهم ، وطبع الكتاب لاول مرة سنة ١٦٧٢ ، وفي مدة سنوات قليلة اعيد نشر الرحلة ثانية وثالثة ، وقد ترجمنا الرحلة عن الطبعة الثالثة التي تمت في مدينة البندقية سنة ١٦٨٣ (٣) .

اما عنوان الكتاب الكامل فهو : « رحلة الى الهند الشرقية للاب فنشنسو ـ مارية دي سانتا كترنية دي سيينا ، وكيل الكرمليين الحفاة العام » .

"Il Viaggio All'Indie Orientali del Padre F. Vincenzo Maria di S. Caterina da Sina. Procurator General de' Carmelitani Scalzi" (Venetia, MDCLXXXIII).

كلمة عن الرحلة نفسها : يعترف فنشنسو في مقدمته ان في الشرق « قوى فنية تجلب المشاعر » ، لكننا لا نجد في تضاعيف الكتاب تعبيرا عن حب للشرق او انجذابا اليه ، فهو يمر بمدن الشرق مرور الكرام . بالرغم من ذلك فان اسلوبه قصصي ممتع وله لغة مسبوكة وقلم سيال .

لقد كانت الترجمة امينة للاصل ، ولذلك احتفظنا بارقام الفصول كما هي في النص الايطالي . اما الهوامش والتعليقات فهي من عندنا . جدير بالذكر ان بعض الباحثين العراقيين نوهوا بهذه الرحلة (٤) .

---

(١) P.F. HENRICO M. a SS. Sacramento: Collectio Scriptorum Ord. Car. Excal. (Sarona, 1884) II, p. 173.

(٢) مجلة مجمع اللغة السريانية ١ (١٩٧٥) ص ١٧٩–٢٠٣ .

(٣) نشكر الاباء الكرمليين الافاضل في بغداد ، اذ تفضلوا فاعارونا نسخة الكتاب الاصلي .

(٤) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ٢ : ١٥٠ .
رزوق عيسى : الاباء الكرمليون في بغداد . في نشرة الاحد ٤ (١٩٢٥) ص ٧٦٧ .

الفصل الرابع والعشرون : سفرنا الى الموصل

[80] (٥) ... اخيرا ، وبعد سير حثيث ، وصلنا صباح اليوم الاول من اب (١٦٥٦) الى تلك المدينة العريقة نينوى ، التي تسمى الان الموصل . وتقع على نهر دجلة . فبعد ان انزل الجنود والمسافرون احمالهم ، ذهب الجميع الى رئيس القافلة لالقاء التحية عليه واسداء الشكر له . وفي هذه الاثناء فتحت ابواب المدينة فدخلنا للحال . وكان رئيس القافلة قد قرر المكوث بضعة ايام في المدينة ، فلما وصلنا الى ساحة القلعة تفرق المسافرون ، وذهب كل واحد في سبيله ،وبقينانحن وحدنا بالقرب من قبور المسلمين ، وانتظرنا ساعات طوال لا نعلم اين نتوجه ، حتى حل المساء ، فعاد الرجال الارمن واخذونا معهم الى الخان حيث استأجرنا غرفا لنستريح من عناء السفر .

كانت مدينة الموصل في سالف الازمنة من اهم مدن اشور وابعدها شهرة . اما حالتها الحاضرة فهي اقل بكثير مما كانت عليه . فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين ، وهي اشبه ما تكون ببيوت الرعاة من ان تكون مساكن اناس متحضرين ، ومركزولاية. وليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري(٦) . ويحيط القلعة سور فيه فراغل للدفاع ضد الهجمات ، على عادة الاقدمين . وليس هناك ما يثير الاعجاب .

اما مواد البناء فهي الجص والحجر الرخو . وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن ، فالامطار الغزيرة تهدده كل حين ، ولهذا السبب راينا بعض اقسام القلعة مائلة الى السقوط ، وبعضها متهدمة ، وليس هناك من يفكر بترميمها .

وقد لاحظت كثرة المدافع على السور ، ومن عادة الاتراك انهم يكثرون من عدد المدافع فوق الاسوار ، لكنني وجدت المدافع مطمورة الى نصفها في الارض ، ولم تكن مجهزة بعربات ، بل كانت مهملة كليا ، ورأينا عند الابراج عددا من المدافع وقد اسندت فوق حجارة ، ووجهوا فوهاتها لتتسلط على السهول المنبسطة امام المدينة .

تقع القلعة في طرف المدينة الايسر ، ويحدق بها خندق تجري فيه مياه النهر ، والقلعة مهملة ، ولو اعتنى القوم بها واصلحوا بنيانها لامست قوية ، نظرا لحسن موقعها ، اما الان فهي اشبه بان تكون مقهى الوالي لا اكثر ! وهو يسكن فيها .

اما **نينوى القديمة** فانها تقع في الجبهة الثانية من النهر ، وهي مطمورة تحت ركام كثير . وقد ذهبت في احد الايام لالقي نظرة عليها ، فلم اجد سوى مرتفعات من التراب ، وعددا كبيرا من القطع الاجرية المفخورة وهي مبعثرة هنا وهناك ، فلم يكن هناك ما يلفت النظر . فعدت ادراجي وانا افكر في نفسي الى اي حال تصل امور العالم وامجادها !

وقد اخبرني احد الرجال الارمن عن وجود قبور جديرة بالزيارة ، تبعد نحو ميلين او ثلاثة عن المدينة ، لكنني امتنعت عن الذهاب بسبب بعد المكان ، ولان التعب كان قد انهكني ، اضافة الى خوفي من تحرشات الاعراب .

مدينة **الموصل** الحالية صغيرة، ضيقةالمسالك، فقيرة المنازل ، لكنها ، من جهة اخرى تتمتع بخيرات وافرة نظرا لخصوبة حقولها .

هناك الى شمال المدينة قرى عديدة يسكنها شعب مسيحيمن نساطرة(٧) ويعاقبة(٨)، وقد قيل لي ان النساطرة يقدرون بثلاثمائة الف ونيف ، ويعملون في الفلاحة ، ويجيدون عملهم بحيث ان اراضيهم اشبه ما تكون بالجنائن الغناء .

ويسكن العرب على ضفاف النهر ، وتكثر لديهم اللحوم والقمح ومختلف انواع الحبوب ، اضافة الى الفواكه ، والدجاج ، الى ما هناك من اشياء مفيدة .

وقد مررت اكثر من مرة باسواق المدينة ، فاخذني العجب من الاسعار البخسة التي تطلب لمختلف البضائع ، وقد اشتريت حاجيات كثيرة ... فالشاة الواحدة تباع باربع شاهيات(٩) التي تعادل

---

(٥) هذا الرقم يشير الى الصفحة في الاصل الايطالي .

(٦) تعني « الجند الجديد » ويكتبها الاتراك « يكيجري » ، ويلفظون الكاف نونا . وهم جنود مشاة في الجيش العثماني، دام امرهم من القرن الرابع عشر الى التاسع عشر الميلادي، اذ ابادهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ .

(٧) هم ابناء الكنيسة المشرقية ، نسبوا الى نسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨–٤٣٠) الذي كان له اجتهاد خاص في علم الكلام المسيحي .

(٨) يريد السريان الارثدوكس ، وقد ابقينا التسمية كما هي لورودها في الاصل .

(٩) نقد ينسب الى السلطان العثماني ، كان في بدء امره من الذهب ، لم ضرب من الفضة والنحاس . (عباس العزاوي: تاريخ النقود العراقية ، بغداد – ١٩٥٨ ، ص ١٣٤ – ١٣٥ و ١٤١ . وكان هناك شاهية بغداد ضربت سنة ١٠٣٥هـ في بغداد وهذه معاصرة لرحلتنا . راجع : يعقوب سركيس : مباحث عراقية (بغداد – ١٩٤٨) جـ١ ص ٣٤٦–٣٤٧ .

اربع قطع يولية رومانية ... وقد اعطونا حملا كبيرا من الفواكه باقجة(١٠) واحدة لا غير ... اما ابقار الموصل فهي من جنس جيد للغاية ، ولا يزيد سعر البقرة الواحدة عن قطعتين « ابو شلبي » (١١) وتساوي القطعة الواحدة من ابو شلبي طاليرا واحدا لا غير (١٢) . اما الخيول فحدث عنها ولا حرج ، فهي من مختلف الاجناس ، فهناك الخيول الفارسية والتركية والخيول العربية الاصيلة . لقد رايت اعدادا كبيرة فاخرة تباع باربعة قروش(١٣) ، او خمسة ، اما الحصان الذي تبلغ قيمته الى اثنتي عشر قرشا او خمسة عشر فهذا يباع في اوروبة بخمسين دينار(١٤) او ستين على اقل تقدير .

رايت عند ضفة النهر كنيسة متداعية ، لكنها جميلة لانها مشيدة على الطراز القورنتي ، ولها قبة غريبة الشكل مزينة بزخارف من الموزائيك المعشق وبنقوش تشبه الزهور واشكال اخرى مرتبة بذوق رفيع . وقد كان هذا البناء كنيسة للنصارى ، ثم ال الى المسلمين ، فجعلوا في صحن الكنيسة الاوسط مسجدا (١٥) ، بينما اتخذ احد الدراويش القسم المحاذي للمدخل مسكنا له ، وكان يعتني بحديقة صغيرة يزرع فيها الاعشاب العطرة خاصة الريحان والحبق ، وقد قسم جنينته الى اقسام منسقة ، وكان يقدم الاعشاب هدية للزوار .

كان الحر شديدا في الموصل ، فانزعجنا وتألمنا منه بشكل اعجز عن شرحه . وكانت الغرفة التي استأجرناها في الخان اشبه ما تكون بالتنور ، من ان تكون موضعا للراحة . ولست اتكلم عن غرفتنا فقط بل عن سائر غرف الخان ، وكان البناء كله من الجص ، وغرفه صغيرة وحقيرة لا يلجها النور الا من منفذ وحيد هو الباب ، وكان الباب بدوره ضيقا مخفيا في رواق قذر . وهنا اترك القاري لكي يقدر العذاب الذي يتحمله شخص في مكان ضيق مطمور كالقبر ، وفي مناخ حار كالنار ! لقد كنا نشعر بالساعات طويلة لا نهاية لها والنهار يكاد ان يكون دهرا من الزمن . اما الليل فكان اطيب نسبيا ، وكان النزلاء يصعدون الى سطح الخان ليلا فينامون فوقه . وكان يحدث ان بعض الموسيقاريين الفطريين يأتون ليلا فيمضون بضع ساعات وهم يعزفون على طنبورين بدائيين(١٦) ليروحوا عن خاطر المقيمين في الخان . وكان الصوت المنبعث عن الآلتين حادا ناشزا يصحبه غناء مستهجن . لقد كان النزلاء ينتعشون عند سماعهم تلك الاصوات ، اما نحن فقد تملكنا الضجر ، لاني لم اسمع في حياتي كلها اسوأ من تلك الموسيقى . ان اولئك القوم لا يجيدون الغناء ولا يتقنون الانغام ، وليس للاتراك آلات موسيقية اخرى عدا الطنبور وهذه الآلة تختلف عن آلة القيثارة المنتشرة في ربوعنا ، فهي اطول من القيثارة ولها اربعة اوتار فقط ، كما ان الاوتار معدنية ، من النحاس او الحديد . وكان شد الاوتار رديئا لذا لم تؤنس السمع بل كانت تقض المضاجع ، لان النغم الصادر عنها كان على وتيرة واحدة لا طراوة فيه ولا حلاوة !

الفصل الخامس والعشرون : السفر من الموصل الى بغداد

عندما كنا في الموصل . اختلفت ارراء المسافرين بخصوص الطريق التي يتخذونها في السفر الى بغداد . فقد قرر رئيس القافلة السفر عن طريق جبل كلدو كي يجمع في طريقه ذخيرة للجنود ، بينما امتنع التجار عن السير في ركابه نظرا لطول الطريق ، وقرروا اتخاذ اقرب الطرق اعني طريق الصحراء . اما نحن فكنا نرجو السفر في نهر دجلة فذاك اسهل السبل ، لكن انحسار الماء في هذا الموسم حال دون تحقيق رغبتنا ، وقد اقنعنا الرجال الارمن بالسفر في صحبتهم .

بارحنا الموصل في ٤ اب (١٦٥٦) وسرنا في قافلة قوامها ثلثمائة فارس ، فتوغلنا في الطريق الصحراوي . وكانت الليلة الاولى صعبة جدا ، فالارض قاحلة جرداء وقد احرقتها الشمس ، وكان

---

(١٠) الاقجة نقد فضي ، دخل العراق منذ ايام المغول ، فشاع استعماله . راجع الاب انستاس الكرملي : النقود العربية وعلم النميات (القاهرة ـ ١٩٣٩) ص ١٦٥ . اما عن قيمة هذه القطعة في مختلف الازمنة فانظر العزاوي : المرجع نفسه ص ١٤١–١٤٢ ، والاقجة في نظر المؤلف تساوي اسبر واحد aspro

(١١) و (١٢) التالير (وتلفظ ايضا مضخمة طالير) نقد الماني الاصل ، من فضة (الكرملي : المرجع نفسه ص ١٧٠) اطلق العوام عليه اسم « ابو شلبي » .

(١٣) ترجمنا كلمة Piastra الافرنجية بكلمة قرش .

(١٤) لفظة Scudo تعني الترس ؛ عن اللاتينية Scutum) اطلق على الدينار الذي صور فيه الترس منذ عهد الرومان . الكرملي : المرجع المذكور ص ١٤٨ .

(١٥) جدير بالذكر ان سائحا معاصرا لصاحبنا ، هو السيد تيفنو M.D. Thevenot الفرنسي الذي زار الموصل سنة ١٦٦٤ نوه بهذه الكنيسة ايضا (راجع تعريبنا لهذه الرحلة بعنوان مقتطفات من رحلة تيفنو الى العراق في مجلة بين النهرين ، الموصل ح (١٩٧٤) ص ٣٨٩ و ٤٠٣) . وليس بالامكان تحديد اسم الكنيسة المذكورة .

(١٦) استعمل المؤلف لفظة Cetra التي تدل ـ حسب اعتقادنا ، وحسب وضعه للالة ـ الى الطنبور .

الغبار يتصاعد بكثرة من جراء سير الخيل ، فصعبت الرؤية وضاق التنفس ، فاخذ جميع المسافرين يشدون المناديل على افواههم ، وغمرنا الغبار من قمة رؤوسنا حتى اخمص ارجلنا . وبعد سير طويل متعب ، وصلنا مع بزوغ الشمس الى منطقة تقع قرب النهر حيث راينا سرادق من القصب منصوبة هناك ، وذلك بالقرب من برك مياه ساخنة كانت تنبع من الارض وهي مشبعة بالقار ، وكان القار يطفو على وجه الماء . ورأينا العمال يجمعونه ويحملونه الى النهر حيث يغسلونه جيدا ويصفونه اكواما اكواما ويعدونه للتصدير . ان هذا الموضع يسمى جهينة(١٧) Giena واعتقد انه موضع قديم ، فقد لاحظت اثار بناء قديم قرب النهر استنتجت منه ان في ذلك المكان كان يقدم بناء عظيم ، خاصة لان الاسس كانت عريضة جدا ، ثم وجدت قنوات عديدة من الطين المفخور . اما الان فليس هناك الا السرادق المذكورة وبيوته ثلاثة مبنية بالجص تعلوها قباب مطلية بالقار ليقيها من ماء الامطار . وفي هذه الغرف توجد حمامات الماء الحار التي يقصدها المرضى طلبا للشفاء من امراض الاعصاب فيجدون فائدة غير قليلة(١٨) .

صباح اليوم التالي مررنا بجدول لا ماء فيه ، بينما كان القار ينبع على جانبيه بكميات كبيرة ، وكان القوم يجمعونه . وقد صعب علينا السير في ذلك الموضع ، فكنا نرش التراب على القار لتتمكن الخيل من السير عليه ، وبالرغم من ذلك فقد كنا نسير بحذر كبير وببطء . وبعد اميال قليلة راينا تلا صغيرا تخرج من سفحة المادة نفسها بكميات كبيرة ايضا وقد انتشرت في السهل ، فحولته الى مستنقع اسود كريه الرائحة ، ولذلك اضطررنا الى تبديل طريقنا (١٩) .

هذه هي ينابيع القار التي كان قدماء الاشوريين يستخرجونها فيستخدمونها للبناء عوضا عن الملاط بعد ان يخلطوا القار بالتبن . ولا تزال الاثار القديمة تشهد على ذلك في المدن الخربة . اما الان فلا يستعملونه في البناء بل في اكساء السطوح المبنية بالجص ليمنع تسرب مياه الامطار الى البيوت . وتتوفر هذه المادة في الطريق بين الموصل وبغداد ، فهي تنبع هنا وهناك ، بل وفي نهر دجلة نفسه فتطفو على وجه الماء ثم تتحول الى جداول بالقرب من ضفاف دجلة وتنتشر في مساحات شاسعة ، ولذا لا تقوم النباتات هناك . كما ان الارض رملية عقيمة ، وبعضها كبريتية ، فتنبعث منها روائح كريهة تعكر صفاء الهواء .

وكنا نلاحظ اثناء سيرنا الليلي ظاهرة غريبة وهي ان الكواكب تبدو وكأنها تتهاوى على الارض فتبعث شرارة . ويحدث كل ذلك نتيجة حرارة الشمس القوية اثناء النهار .

كانت مياه دجلة صافية وطيبة المذاق ، ولكن بعد ان اختلطت بالقار تغير طعمها ، فكانت المعدة ترفضها ، فتألمنا جدا من جراء ذلك . . . اما حالتنا العامة فقد كانت بائسة جدا ، فالحر الشديد أيبس حلوقنا ونشف السنتنا ، واستولى علينا خوف عظيم من الاسود ، اذ كنا نسمع زئيرها وهي قرب ساحل النهر ، ورأينا اثار اقدامها هنا وهناك . . . فاخذنا نوقد النار دائما ونتناوب الحراسة(٢٠) .

بعد ثمانية ايام من مبارحتنا الموصل ، انحرفنا عن مجرى النهر ، وتوغلنا في الصحراء ، فكان منظر الصحراء الشاسعة رحيبا ، اذ لا حياة فيها ولا نبات وكل ما فيها ينذر بالخوف والموت .

نحو منتصف النهار ، هبت ريح قوية حملت معها هواء حارا كان اشبه ما يكون بالسنة لهيب محرق . . . وفي المساء عدنا الى طريقنا الاول ، اي بالقرب من النهر ، فما ان اقتربنا منه حتى هرع المسافرون كلهم الى الماء ، اذ كان العطش قد اهلكهم ، فشربوا وسقوا الخيول وتزودوا بكمية كافية من الماء .

بعد ان عاودنا السير مررنا بخان متهدم ، كان يسكنه قبل سنوات رجل عربي عرف بالشجاعة والباس ، وكان يتراس زمرة من اللصوص وقطاع الطرق ، وبعد محاولات عديدة ، استطاع والي الموصل من القاء القبض عليه فكبله بالحديد والقاه في قلعة الموصل ليكفر عن جرائمه .

اخذنا نشعر باشتداد الحر . وبالرغم من ذلك واصلنا السفر ، فقطعنا مسافات شاسعة ، واخيرا وصلنا في الليلة التالية الى مدينة تكريت القديمة .

كانت تكريت في غابر الزمان مدينة كبيرة

---

(١٧) جهينة « قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة وهي اول منزل لمن يريد بغداد من الموصل » معجم البلدان للحموي ٢ : ١٦٨ .

(١٨) ان المؤلف يشير الى الموضع المعروف باسم « حمام علي » بالرغم انه وضعه سهوا بعد جهينة .

(١٩) اعتقد انه يشير الى القيارة .

(٢٠) كانت الاسود كثيرة الانتشار في العراق في قديم الزمان ، كما تشهد على ذلك الاثار الاشورية ، ويظهر انها بقيت الى القرون المتاخرة ، فان الرحالين من امثال سبستياني وبتفنو وتافرنيين وغيرهم يذكرون وجودها .

واسعة الاطراف ، لكنها الان ليست سوى قرية عادية . كما ان تكريت كانت [على المستوى الديني ـ الطائفي] من الولايات الخاضعة لسلطة البطريرك اليعقوبي ،ولذا فانه كان يقيم فيها عادة . وبامكان المرء ان يشاهد الى اليوم بقايا قلعة كبيرة واقعة على تل جميل مسيطرة على النهر ، لها اربعة ابراج ، ان هذه القلعة هي ما تبقى من الصرح البطريركي والمصلى ، وهما واسمان فخمان ، وبالرغم من مقارعتهما احداث الزمن ومحاولتهما الصمود ، لكن اجلهما قريب وسقوطهما وشيك ، فسيلقيان النهاية المحتمة التي آلت اليها مختلف الابنية الاخرى .

لقد رايت اثارا اخرى في ذلك الموضع ، ولكن ، ليس باستطاعتي ان اصفها واشرح طبيعتها ، اذ لم يكن معي من يدلني الى اصلها ؟ انما بامكاني ان اقول ، ان عظمة الاسوار ونوع البناء والاعتناء البالغ الذي بذل في تشييدها، كل ذلك يدل على فخامة وعظمة قديمة . خاصة تلك البنايات المقامة في الجهة المقابلة للنهر اعني المواجهة لارض كلدية ، اذ هناك اثار رفيعة القدر بديعة الصنع . وهنا اقول اني اكتفيت بالقاء نظرة عن بعد والتمتع بتلك الاثار ، اذ لم يكن معي مرافق يشرح لي ، كما ان قواي البدنية لم تكن بحالة تسمح لي التجوال في اطراف تلك الاثار .

لم يبق لنا سوى اربعة ايام لنصل الى بغداد . وقد انقضت تلك الايام ، ونحن نمر بمدن قديمة ، ونرى كمية كبيرة من الاجر المفخور ، منتشرة هنا وهناك في الصحراء في الصحراء الواسعة، وكلها بقايا ابنية قديمة نالها الخراب وهذه الكميات الكبيرة من الاجر تدل على ان ذلك الموضع كان في سالف الزمن مأهولا بعدد كبير من السكان ، والا فكيف يفسر المرء وجود تلك القطع المعتنى بصنعها وبهذه الكميات الكبيرة ، وكلها بحجم واحد ، وهي مبعثرة هنا وهناك ، كما نشاهد في بعض المواضع اخربة كبيرة الحجم ، فهناك سور عظيم لا تزال اسسه ظاهرة ، كما رايت بعض القصور وهي مائلة الى الخراب ، وفيها صفوف جميلة من الاقواس الكبيرة ، ومنها على شكل الاهرام ، اضافة الى ابراج . وكل تلك الاثار تشهد على عظمة سابقة هي الان في طريقها الى الزوال .

كما وجدنا على مسافة من تكريت بناء تعلوه قباب صغيرة بسيطة ، ويقع البناء فوق تل تحيطه اسوار قوية جدا ، ويكاد البناء ان يكون كاملا ، لكنه خاليا من السكان .

وفي الليلة التالية سرنا ساعات طويلة حول بقايا مدينة ، كانت ماثلة امامنا منذ ساعات الصباح عندما وصلنا الى النهر(٢١) . وقد لاحظت ان بناءها كان بمحاذاة النهر . ويشق المدينة شارعان فسيحان . وقد اخبرني المرافقون الارمن بان هذا الموضع كان في سالف الزمن مثوى امراء بغداد ، وكانوا يحتفظون فيه بالعربات والجياد وبقسم كبير من قواتهم التي يعتمدون عليها . واضاف الارمن فقالوا ان ذلك المكان يضم قبر كسرى ملك الفرس .

وقد امضينا اليوم الاخير من سفرتنا قرب مدينة كبيرة لها ابراج وبنايات جميلة للغاية ، لكن اهاليها هجروها منذ سنوات قليلة ، بالرغم من خصوبة اراضيها ، فلم نجد في المدينة انسانا . وقد قيل لنا ان سبب هجرة السكان لها شحة المياه ، اذ حيث يكثر القار والاملاح فان مياه الابار لا تصلح للسكان . وكان هناك جدول ماء يمر بالقرب من المدينة ، لكن السد الذي كان يحميه تحطم قبل سنوات ، فتحول مجراه الى جهة اخرى ، ولم يهتم الوالي بشأن الاهالي فقرر جميعهم تركها في يوم واحد ، وهكذا بين ليلة وضحاها اصبحت المدينة خالية خاوية ينعق على اطلالها البوم . . .

الفصل السادس والعشرون : بغداد

صباح اليوم التالي ، بعد عشرة ايام منذ ان بارحنا الموصل ، واثنين وثلاثين يوما منذ ان تركنا حلب ، وصلنا الى قرية صغيرة(٢٢) ، تاركين خلفنا الصحراء الشاسعة والاراضي القاحلة ، فبانت امام انظارنا حقول خضراء خصبة ترتوي بماء دجلة ، ثم ظهرت امامنا اخيرا غابات النخيل التي تجمل منظر بابل الجديدة(٢٣) .

ثم مررنا بتل ، قالوا عنه انه من بقايا برج بابل القديم(٢٤) . لكن الراي الاصح الذي يعتمد على الكتاب المقدس ان بابل تقع على الفرات ، حيث يمتد السهل العظيم ، فذاك هو الاصح كما ساذكر في الكتاب الخامس ، عندما اقص حوادث عودتي . لكني تقبلت راي الاعراب القائلين بان الاشوريين كانوا يستعملون هذا عند نشوب الحروب ، فيوقدون النار على قمته ، فتشاهده المدن القريبة فتهرع ملبية نداء الحرب .

ان هذا التل ، كما نراه الان ، مرتفع هائل لا فراغ فيه ، اما الحجارة فهي كبيرة جدا ، وهي

---

(٢١) ان المؤلف يشير الى آثار مدينة سامراء .

(٢٢) انه يشير الى الكاظمية .

(٢٣) يستعمل المؤلف اسم بابل عندما يتكلم عن بغداد ، ففضلنا وضع اسم بغداد .

(٢٤) هذه اشارة الى برج عكركوف .

مربعة الشكل ، طول الضلع الواحد نحو شبرين ، وقد رتبت على الطريقة التالية : لقد رصت الحجارة بالقار على صفوف ، وبين كل خمسة صفوف او ستة وضع البناء طبقة سميكة من القار المعجون بالقصب المكسر والتبن المسحوق (٢٥) .

وقد حدث قبل سنوات ان مر بهذا الموضع سائح اوروبي برتغالي ، فقلع بعض الحجارة ، فوجد سنبلا لا يزال قمحه سالما من العطب ، وكان قشر الحنطة قد اسود اما لبه فابيض نقي .

وبعد سويعات من بزوغ الشمس ، وصلنا اخيرا الى المدينة التي اشتقنا اليها كثيرا ، اعني مدينة بغداد التي يسميها العرب دار السلام . فحدث ولا حرج عن الفرح الذي غمرنا بعد ذاك السفر الشاق والخطر . فاخذ الجميع يعبرون عن سرورهم بالصياح والرقص واطلاق العيارات النارية . لكن فرحهم لم يدم طويلا ، فما ان وصلنا الى الجسر حتى لاقانا الجنود الانكشاريون بتوجوه عابسة ، لقد كانوا والحق يقال اقرب الى الوحوش منهم الى البشر ، كانوا متسلحين بهراوات غليظة ، فلما ارادوا التمييز بين افراد القافلة وابناء المدينة الذين احاطوا بنا باعداد كبيرة ، انهالوا ضربا وركلا على كل من يقترب منهم ، فاصاب الارمن المرافقين لنا حصة كبيرة من الاذى .

كانت الجياد ، بالرغم من تعبها ، تسرع خطواتها نحو المدينة ، فاخذ الجنود يفتشون عن اكبر عدد من الخيول المحملة لاجل استيفاء الرسوم، وكانوا يضربون الحيوانات واصحابها بدون رحمة ، واذ احتج احدهم لثقل الرسوم التي فرضوها عليه، فاخذ يصرخ ويلعن وقال انه سيرفع احتجاجه الى الوالي نفسه ، فازداد الجنود هياجا وانهالوا عليه بالضرب ، وقبضوا عليه من ذقنه فنتفوا شعر لحيته وكادوا ان يمزقوا جلده باظافرهم . فخفنا ان يصيبنا ما اصابه من ضيم ، لذا اسرعنا الى دفع ما علينا من رسوم حسب امرهم ، اعني قرشا كاملا عن كل فرد فتركونا وشاننا . فلما وصلنا الى منتصف الجسر ، حيث توجد نقطة حراسة ثانية ، باغتنا الجنود بهراواتهم لابطائنا في السير نظرا للازدحام على الجسر . وبعد ان عبرنا الجسر ووصلنا الى ضفة النهر صعدنا الى القنطرة التي تودي الى باب المدينة ، فراينا عددا كبيرا من الجنود الانكشاريين الخيالة ، خارجين من المدينة ، وهم يسيرون بعجرفة وخيلاء ، دون الاهتمام بالسابلة ، بل كانوا ينهالون بالضرب الى اليمين والشمال لاجل افساح الطريق امامهم ، فاخذت الجماهير تتدافع ، وكدنا نسقط في النهر ، وتعالت صياحات الناس المساكين وتذمراتهم . وعند الباب طالبونا برسم جديد لكوننا افرنج ، وكنا نعلم ان اي احتجاج او مماطلة تثير غضبهم ، لذا اوعزنا الى احد رفقائنا بالدفع كما يريدون كي نمر بسلام . اخيرا وصلنا الى دير الاباء الكبوشيين(٢٦) ، فاستقبلونا بترحاب حار، وحب اخوي ، وهيأوا لنا كل وسائل الراحة .

وكان بين الاخوة الرهبان المذكورين ، راهب فرنسي يتعاطى الطب ، وله في هذا الفن خبرة واسعة ، ويتقن اسراره ، وكان قد انقذ الوالي من مرض مزمن(٢٧) ، وشفى اخرين من امراض مختلفة كانوا قد فقدوا الامل من شفائهم ، فاحبه الجميع واحترموه ، وامطروه بالهبات والعطايا ؛ بحيث زادت عن حاجة الرهبان . وقد تفضل هذا الراهب فرافقني لزيارة الاماكن المهمة في المدينة .

تعتبر بغداد من اهم المدن الخاضعة للسلطان العثماني ، بحيث انهم يطلقون عليها اسم بغداد « المقدسة » ، ذلك لانها من الحواضر الاولى التي خضعت لسلطة محمد (ص) ، كما انها تضم رفات كثيرين من اولياء الله خاصة من ابناء علي (ع) .

وقد كان الايرانيون والاتراك في صراع مستمر من اجل بغداد ، ولم يكن هذا الصراع من اجل الحصول على مدينة بقدر ما هو من اجل هيبة الدولة الحاكمة والدعاية لها . وقد ضحى الطرفان من اجلها دماء غزيرة واموالا طائلة ، خاصة لكون هذه المدينة بعيدة عن عاصمة الطرفين ، وتفصلها عن مركز الامبراطوريتين صحراء شاسعة . لهذه الاسباب ، تعتبر بغداد من اهم ولايات الانبراطورية العثمانية ، بعد اسطنبول .

---

(٢٥) عكركوف او عقرقوف وهي مدينة دوركوريكالزو التي اسسها ملوك الكيشيين الذين ظهروا في ايران واحتلوا العراق في الفترة ما بين ١٧٤٠ و ١١٥٠ ق.م ، اما تاريخ تشييد عقرقوف ففي اوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

(٢٦) الكبوشيون رهبان من اتباع فرنسيس الاسزي . قدموا الى بغداد سنة ١٦٢٦ (نصدي : ذخيرة الاذهان ٢ : ١٩٥) وبارحوها سنة ١٧٠٢ .

(٢٧) كان الوالي انذاك اق محمد باشا (محمد باشا الابيض) ١٠٦٥-١٠٦٧هـ (١٦٥٤-١٦٥٦م) وقد ذكر المؤرخون مرضه (كلشن خلفا ٢٥٠ ، كوك : بغداد مدينة السلام ٢ : ٤٦ ، لوتكريك : اربعة قرون ص ١١١) اما شفاؤه فقد نسبه مؤلف كلشن خلفا الى درويش صوفي اسمه مصطفى دده الخرباتي ، وهذا ما رددده العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٥ : ٥٢-٥٣

ان موقع بغداد اشبه ما يكون بجزيرة ، وذلك بسبب تفرع نهر دجلة ، وهي بين حدود فارس ، ونهاية اراضي بين النهرين من جهة [وبدء الصحراء] العربية من جهة اخرى . وهي مدينة قوية بسبب النهر الذي يحيطها من كافة اطرافها ، ومجرى النهر قوي وليس من السهل تحويله ، لهذا فانه يحميها . وفيها قوة عسكرية معتبرة ، تجعل فتحها عسيرا . ويكدس العثمانيون فيها السلاح ، لاسباب عديدة ، منها ان ايران القريبة منها تطالب بها وتنتظر فرصة سانحة لتهجم عليها ، كما ان اعراب الجنوب ، ووالي البصرة لا يتوقع الامان(٢٨) .

يبلغ عدد الجنود الانكشاريين في بغداد نحو خمسة وعشرين الفا ، وهذا العدد الكبير بحد ذاته يجعل المدينة مكتظة بالسكان . والمدينة واسعة وباستطاعتنا ان نقارنها بالمدن الاوروبية الكبيرة . لكن بيوتها ليست ذات شأن ، فهي مشيدة بالجص والطابوق غير المفخور .

احترق قبل سنوات قسم كبير من المدينة ، ولا تزال الجدران قائمة ، وليس هناك من يفكر باعادة البناء(٢٩) . والمدينة ليست وحدة متكاملة ، لان النهر يقسمها الى قسمين ، وقد اقاموا جسرا من القوارب على النهر ، وهو سهل الربط والحل .

ان احسن البنايات واقواها تحصينا ، هي تلك الواقعة شمالي المدينة ، المطلة على دجلة ، وبعض تلك الابنية جديرة بالاعتبار ، اولها السراي وهو مركز رجال الحكم .

تنتصب القلعة في الجهة الغربية . وفيها عدد كبير من الجنود لحمايتها ، وينظر الاهالي اليها نظرة خوف وتعظيم ، فيها مدفعية كثيرة وجميلة ، وجدير بالذكر ان قائد المدفعية هو اوروبي المحتد، لقد استطاع هذا الرجل بمهارته ان يكسب ثقة رجال الحكم حتى امسى في نظرهم اله الحرب ! وكان هذا الرجل ، مع شخص اخر بندقي الاصل قد تزعما الهجوم بالمدفعية اثناء الحصار الذي امر به السلطان على بغداد ، ويرجع اليهما الفضل في فتح بغداد واسترجاعها من العاهل الفارسي . فاعترافا بالجهود التي قدماها ، فقد اسندت اليهما وظيفة ادارة المدفعية . وقد مات احدهما والثاني لايزال على قيد الحياة(٣٠) .

مناخ بغداد طيب جدا ، وقد قيل لي ان الناس هنا يبلغون عمرا طويلا ، ونقلوا الي ان في تلك توفى اثنان ، بلغ عمر احدهما مائة وثلاثين عاما ، والثاني مائة وعشرين !

الماء يباع في بغداد ، ويجلبونه من الشط في ازقة كبيرة من الجلد . على ظهور الثيران والجياد ، وبالرغم من تلوث المياه بالقار ، كما سبق وان اشرت، لكن من يشر بها باعتدال فلا ضرر فيها ، بل بالعكس اذ انها تفيد الجسم وتجعله معتدلا ومرتاحا .

الاراضي الواقعة على ضفاف دجلة والفرات خصبة وجزيلة العطاء . الخيرات في بغداد وفيرة جدا . فالقمح كثير وكذلك اللحوم ومختلف انواع الفاكهة . لذا ترى طرق المدينة مليئة بمختلف انواع الحبوب وهي تباع باسعار بخسة جدا . وهذا امر يثير الاعجاب .

بزازات بغداد ، اي الاسواق التجارية ، جميلة وواسعة ، مغطاة بسقوف ، وهي مزينة بطريقة ظريفة على عادة الايرانيين .

يعتبر سراي والي بغداد من اكبر السرايا بين مختلف ولايات الانبراطورية العثمانية . لكن بوابة السراي الخارجية لا تعطي فكرة عن عظمته ، فيظن الداخل الى السراي ان البناء عادي لا اهمية له ، لكنه ما ان يقطع مسافة خطوات قليلة حتى يصل الى الفناء الداخلي الواسع ، وهو مربع الشكل ، بعيد الاطراف ، هناك يشاهد الزائر عددا كبيرا من الجياد الخاصة بالحرس موزعة الى صنوف منتظمة، واقفة في الحوش على أتم الاستعداد . وبنيف عدد الخيل على الاربعمائة راس ، وهي من الجنس الاصيل ، مزينة بزينات جميلة وثمينة .

---

(٢٨) كان والي البصرة انذاك حسين باشا ابن علي بن افراسياب الديري ، انظر : زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر للشيخ فتح الله بن علوان الكعبي ط ٢ (بغداد ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م) ص ١٩ وما يليها ، لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر خياط) ط ٤ ص ١٣٩ .

(٢٩) نرى ان المؤلف يشير الى اثار الحرب عندما حاصر السلطان مراد مدينة بغداد وفتحها مسترجعا اياها من ايدي الفرس وذلك سنة ١٦٣٨ .

(٣٠) لا نعرف اسم الرجل البندقي ، اما الشخص الثاني ، الذي يذكره المؤلف فهو ميخائيل كوندوليو ، ولقب باسم ميخائيل اغا الطوبجي . قيل انه من كاندي اي كريت وقيل من اليونان او من البندقة . ذكره تافرنييه : العراق في القرن السابع عشر . ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد - ١٩٤٤) ص ٧٩-٨١ وسبستياني : رحلات الى العراق (مخطوطة : ترجمة القس بطرس حداد)

Rabbath (P. Antione) S.I. = Documents inedits pour servir à l'histore de Chrestianisme en Orient, Paris-190 11, 272, 321 et I p. 591.

ثم يصل الزائر الى حدائق غناء مليئة بانواع الاشجار كالليمون والبرتقال واشجار اللوز ، ومختلف الاشجار الاخرى ، وهي مرتبة باعتناءبالغ. وتفوح من تلك الحدائق روائح عطرة للغابة .

اخيرا يصل الزائر الى القصر وهو ليس بالكبير ، لكنه مزين بنقوش عربية مرسومة باعتناء فائق ودقة متناهية . ويرتفع الطابق الاول عن سطح الارض نحو ثلاثة اذرع ، ويتم الصعود اليه بواسطة سلمين متقابلين متشابهين ، محاطين بالحديد، وهذه الدرجات تقود الزائر الى الغرف الكبيرة الرئيسة .

واذ كان الوالي غائبا [عن القصر] . فقد خرج للتدرب على السلاح ، فقد اخذني مرافقي لاتمتع برؤية مختلف مرافق السراي .

كانت الصالة الاولى منقوشة بازهار ذهبية بارزة على قاعدة خلفية زرقاء . اما السقف فكان مزينا بالفسيفساء ، وكانت ارضية الصالة مطلية بطبقة رقيقة من الدهان الهندي . ثم دخلنا الى ديوان الوالي . وهو صالة كبيرة لها طنف في احدى جهاتها ، وهي شبيهة بقاعات قصور النبلاء في البندقية . وكانت الجدران مزينة بخزف مطلي ، كان على جانب عظيم من دقة الصنع ، ومزخرفة بنقوش معشقة بحسب الفن العربي ، وكانت القطع مربوطة الواحدة بالاخرى باعتناء كبير فتكون منظرا جميلا . وكانت الواجهة مزينة بنقوش ذهبية على خلفية زرقاء . وفي الوسط قبة لها حنيات مزينة باشكال هندسية ونقوش مختلفة غريبة الشكل . اما ارضية القاعة فقد كانت مفروشة بطنافس منسوجة بالحرير والذهب ، وقد طرحت للجلوس الافرشة امام الجدران وهي مغطاة بقماش من الاطلس القرمزي اللون ، وعليها وسادات كبيرة من قماش ابيض موشى بخيوط ذهبية ؛ وقد وضعت للاتكاء عليها .

اما الجهة المقابلة للباب فتتكون من نوافذ ، من ارضية القاعة الى سقفها ، فهي كالشرفة او الروشن، وفيها سرير الوالي ، لكن نظرا لحرارة الجو الخانقة في الغرفة ، فان الباشا كان ينام في الهواء الطلق مثل سائر اهل المدينة .

زرنا من ثم جناحين اخرين مفروشين بطنافس ثمينة ، ويقعان على طرفي القاعة الاولى وهما يكملان البناء . ونظرا لكون غرف هذين الجناحين اوطأ من بقية البناء ، فقد شيدت فوقهما غرف للبطانة والخدام .

هناك في الجهة المقابلة للقصر بحيرة جميلةجدا، ماؤها نقي ، وفي وسطها جزيرة اقيمت عليها غرفة متكونة من قطع من الزجاج مشدودة الى بعضها باخشاب ملونة باللون الاحمر . هناك يجلس الوالي بعض ساعات النهار ليستمتع بالنسيم الذي يهب من الغابات المجاورة وبخرير المياه الصادر عن النافورات التي تستمد مياهها من اقنية ثلاث تصب في البحيرة .

كانت الحدائق واسعة الارجاء بهية المنظر ، حسنة التنظيم ، تشقها طرقات عديدة . وفيها انواع مختلفة من الخضروات والاشجار المثمرة . وقد رأيت شبل اسد تم القبض عليه من وقت وجيز ؛ علما وقع نظره علي اخذ يزأر ويضرب الارض باقدامه .. فاسرع الحارس ووضع امامه راس خروف ليسكته ، فما ان تناوله حتى ضربه بقدمه فشطره الى قسمين ، فتملكنا الخوف من ذلك المنظر المخيف .

اعتاد الوالي على الخروج [الى المدينة] مرة واحدة في الاسبوع . فيحيط به حرسه من خيالة ورسميين ، فيذهب الى خارج الاسوار حيث يوجد سهل فسيح فيتدرب هناك على السلاح . وقد حضرت مرة حفلة خروج الباشا ، فتملكتني الدهشة من عظمة الموكب المرافق له . فقد كان في مقدمة الموكب نحو الفين من الخيالة لابسين ازياء مختلفة، ويدل منظرهم على كبرياء واعتداد بالنفس ، ويرتدون جببا ملونة بمختلف الالوان ، ويلبس بعضهم جلود الغزلان او النمور او الفهود . وتتبعهم كتيبة من ست جنود يضربون الطبول التركية وستة يعزفون مزامير الحراب . وكان صوت العزف قويا يصم الاذان ، لكنه يعبر عن اكرام لرئيسهم .

ثم تسير ثلة من قادة الجيش ، تحيط بكل واحد منهم زمرة من الخدم ، بالبسة جميلة ، يهرولون في ركاب مولاهم ، ويأتيمن ثم «القواصون» اي حملة الرايات التركية . هذا ، الى جانب اعضاء اللجان والسفراء لدى الامير . كانت رؤوسهم مغطاة بعمائمهم مليئة بالريش على شكل خوذة ، ويلبسون الجبب الحمراء ، يتقدمهم رجل يحمل امام صدره سيف علي ذي الحدين مسندا على كتفه ، اذ انهم يعتقدون ان هذا السيف هو بركة لاسلحتهم .

ثم تسير بطانة الوالي من ذوي قرباه ، يحمل كل واحد عكازة لها قبضة فضية ، بعضها منقوشة، لكني لم اتمكن من رؤية النقوش بوضوح . ويسير في وسط هؤلاء رجل يحمل اناء عليه مفاتيح المدينة، اذ هي رمز للسلطة . اخيرا يأتي الوالي وحوله عدد اكبر من العبيد والخدم بالبسة حمراء ، يحملون

اطراف ثوب الباشا ، ويسير في مؤخرة الموكب عدد كبير من الجند .

وكانت الجياد كلها جميلة للغاية ووسيمةجدا، اذ هي من الجنس الاصيل الثمين ، خاصة تلك الجياد الخاصة باكابر القوم ، فاني لم اشاهد في حياتي كلها اجمل من تلك الجياد .

يحاول كل واحد من علية القوم ان يظهر عظمته ومكانته في جياده ، فهم يزينونها بانواع الزينات كالسروج الثمينة ، ويجعلون سلاسل الاعنة من الذهب او الفضة ويضعون على جبين الحصان وفي صدره وعلى رقبته مجموعة من الاحجارالكريمة. وهناك من يريد اظهار اعتنائه بالخيل وافتخاره باصلها ، فيثقب منخار حصانه ويعلق حلقات كبيرة وغليظة من الذهب .

ما ان يصل الموكب الى المكان المحدد ، حتى يبدأ التدريب ، فينقسم المشتركون باللعب الى صفين ، ويتسابقون بالتناوب ، هذا الصف تارة والصف الاخر تارة اخرى ، ويركضون وهم على الجياد ، فيلتقي الطرفان . ويمسك كل لاعب منهم رمحا بيمناه فيقذفه باتجاه الطرف الثاني ، ويجري اللعب بمهارة فائقة تثير الاعجاب . فلا نطيش رمية احدهم الا نادرا . ورايت الوالي والاغا يمارسان اللعبة اكثر من مرة . بينما يقف افراد الموكب ينظرون اليهما ويعجبون بمهارتهما . وبعد مرور نحو ساعتين من الزمن يعود الموكب الى المدينة بنفس النظام الذي اتبعه عند الخروج . وما ان يلج الموكب باب المدينة حتى يصطف الجنود على جانبي الطريق اعتبارا من باب المدينة الى باب السراي .

يمتطي القوم الخيل ببراعة فائقة ، وهم لا يستعملون المهماز ، لان حافة الركاب تقوم مقامه ، فالركا بالذي يستعملونه عريض جدا بحيث يتيح للقدم كلها ان تدخل فيه . ولا يمدون سيقانهم عند ركوبهم الخيل بل تبقى مقوسة عند الركبة ذلك لان سيور الركاب قصير ، لذا تميل الرجلان الى الوراء ، وبالرغم من ذلك فهم يمتطون الجياد ويسوسونها بمهارة عجيبة ، ولم اشاهد في حياتي من يجاريهم في هذا الميدان بين شعوبنا.اما سرعتهم عند الجريان بالخيل فحدث عنها ولا حرج ، فهم يسابقون الريح، ويتقنون قيادة الحصان مهما كان جموحا ، ويكبحون جموحه بمهارة وكانهم تدربوا عليه وروضوه منذ زمان .

ان المشقات الكبيرة التي قاسيناها في سفرنا ، حتمت علينا البقاء في بغداد فترة من الزمن للاستراحة . وكان الاباء الكبوشيون يلحون علينا بالبقاء ، لكن طرق الله هي غير طرق البشر ، فقد حدث في تلك الايام ان قائد البندقية الفارس المشهور لورنسو مارجللي هجم على الاسطول العثماني فدحره ، ثم تقدم نحو العاصمة مهددا اياها، فانتاب السلطان شعور بان ساعة الخراب قد اذنت . وفي تلك الاوقات العسيرة بعث احد وزراء اسطنبول رسولا خاصا يحمل كتبا سرية الى باشا بغداد ، يخبره بها بما حل بالسلطنة وبالخطر الجاثم على صدر الباب العالي ، اذ كان يخاف من هجوم مباغت على العاصمة بعد ان راى دمار الاسطول البحري . فلما علم الوالي بهذه الاخبار توقع هجوما انتقاميا على الاوروبيين ، فدعا الكبوشيين سرا ، اذ انه كان يكثر لهم الاحترام والحب ، خاصة بسبب شفائه على يدهم ، واخبرهم بالخطرالمحدق بهم ... وحثهم على النزوح قبل ان تصل الاخبار المشؤومة الى بغداد ، فتكون العاقبة وخيمة . فشكر الاباء الوالي على حسن ظنه ، واخبروه بانهم يعتقدون بان ليس في استطاعة البندقيين الهجوم على مدينة كبيرة ماهولة ، وان الاخبار التي بلغته فيها شيء من المبالغة ، لذلك فهم يفضلون البقاء في حمايته . ولم تمر ساعات قليلة حتى انتشر الخبر في ارجاء المدينة وشاع بين الاهلين ان العاصمة قد سقطت ، وان السلطان قد لاذ بالهرب ، وحصون الدردنيل قد دكت ، وان الاوروبيين قد استولوا على بلاد اليونان ، فهاج الشعب وماج ... لذلك نصحنا الاباء بالسفر حالا ...

الفصل الثامن والعشرون :
السفر من بغداد الى البصرة (٣١)

بعد ان قررنا السفر وحددنا موعده ، اخبرونا بوجود دانك قيد الاعداد ، والدانك هو من انواع المواخر في دجلة(٣٢) ، ويديره انكشاري هو صديق حميم للاباء الكرمليين في البصرة ، فما ان علم برغبتنا في السفر حتى اتى الى الدير ، يعرض نفسه ويقدم خدماته . فقبلنا دعوته ، وفي اليوم التالي ، وهو الثامن عشر من شهر اب [١٦٥٦] صعدنا الى الدانك ووجهتنا الخليج .

لقد كتب البعض عن نهر دجلة فقالوا انه يجري بسرعة فائقة ، وان السفن تمخر فيه بسرعة كبيرة ، حتى انهم شبهوه بالسهم ، بحيث اذا

(٣١) لم نترجم الفصل ٢٧ ، لان مادته لا تتعلق بالرحلة .
(٣٢) الدانك ضرب من السفن الشراعية ، ويقال ايضا دونيج . راجع : حبيب زيات : المراكب والسفن في الاسلام (مجلة المشرق ١٩٤٩ ص ٣٢٤) .

اطلق سهم من القوس فان السفن تصله نظـــرا لسرعة جريان مياه دجلة ، ولذا سمي بهذا الاسم الذي يعني بالفارسية « السهم » . لكن الواقع هو غير ذلك ، فالسير مع مجرى دجلة او ضده لا يتم الا بقوة رجلين او ثلاثة ، ومجرى النهر واسع وشبيه بنهر البو (٢٣) وعندما يصل الى مدينة العمارة فانه ينقسم الى فروع عديدة ، فتشح مياهه وتكثـــر الجزيرات في وسطه ، ويستغرق اياما عديدة ليعود فيلتقي بنهر الفرات . وهكذا يصبح السير في بعض المواضع صعبا نظرا لضيق مجراه الذي لا يتسع الا لمركب واحد .

كانت ضفاف النهر مأهولة بالسكان، ومزروعة بانواع الاشجار المثمرة اضافة الى الرز ، كما تكثر غابات النخيل الذي يثمر التمر ، وهو غذاء مهم في تلك الاصقاع . وهناك غابات من شجر السرو البري الى غير ذلك من الاشجار البرية ، وتعيش في تلك الغابات اعداد كبيرة من الاسود ، فلهذا السبب كتب بعض المؤلفين عن خطورة هذا الطريق وصعوبة اجتيازه ، لكني اعتقد بانهم بالغوا في كلامهم ، فلم اصادف في طريقي الاسود الا لماما وكنت اسـمع زئيرهـــا .

كانت السفينة كبيرة ، لكنها بدائية الصنع ، فلا تجد فيها اثرا للفن او للهندسة ، انها والحق يقال اشبه ما تكون بقارب شارون(٢٤) ، تتكون من اعواد متشابكة مربوطة الى بعضها دون اتقان ، وكأن لا قيمة للحياة في عين مصممها . وكانت ارضيتها مطلية بطبقة من القار المخلوط بالطين سمكها اربعة اصابع ، لذا كان الرجال يكثرون من رشها بالماء ليحولوا دون ذوبانها بحرارة الشمس المحرقة . امـــا الصارية الرئيسة وبقية الصواري فهي قطع خشبية ملتوية، وقد ربطت الواحدة بالاخرى دون اتقان في العمل ، ولذا فقد هوت السارية اكثر من مرة . ومن عجب العجاب انها لم تلحق الاذى باحدا . اما الشـراع فحدث عنه ولا حرج ، فالشقوق والثقوب لا تعد ولا تحصى ، وهكذا الحبال فعقدها اكثر من ان تحصى ، وفي كل يوم كانت تشد من جديد ، فنزيدها عقدا . وكان الكوثل واطئا جدا ، وبعكسه ، كانت المقدمة عالية ، حادة الشكل ، كما ان جوانب الدانك كانت عالية ايضا . وليس في الدانك تقسيمات او امكنة مسقفة مخصصة لراحة المسافرين ، اللهـم بعض الاغصان المسندة على عيدان ، وكان لابد لنا ان نضيف كل يوم بعض الاغصان نقطعها من الاشجار القائمة على ضفاف النهر .

اما سير الدانك في النهر فهو اشبه بدوران البركار ، فانت ترى المقدمة الى الامام ، واذا بالكوثل يحل محلها ، وما اكثر ما كان يصطدم بالضفاف او يرتطم بالجزيرات النهرية ، خاصة عندما كان يطيب للنهران يتراقص ويجري على هواه ، وعنـد كـل صدمة كنت اعتقد ان نهايته المفجعة قد اذنت ، وان الواحة قد تحطمت ، خاصة بعد ان تحطم مقوده مرتين . فتتعالى الصراخات ضد الربان ، فكـــان المسافرون يقولون ان الربان لا يتقن عمله ، ثم يؤكد كل واحد منهم انه يعرف فن قيادة السفن احسن من الربان ، فتنطلق التعليمات من كل الجهـــات ، وهكذا تعم الفوضى ، لانه من الامور المعروفة ان كثرة التعليمات في القيادة تولد الفوضى ، وكان كل واحد منهم يصر على رأيه ويرفض الانصياع لقيادة واحد . وعندما كانت الرياح تجري كما يشتهون ، عندئذ يمتلىء الدانك صياحا ، فيصلون ويسلمون على النبي ويطلبون عونه ... وعندما يرتطم الدانـــك بالطين يضطر المسافرون على الغطس في الماء لدفع الدانك الى الاعلى حتى يعود الى العوم .

كان في الدانك تجار من الانكشاريين ، شيمتهم اصدار الاوامر لا تقبلها ، وكانوا يريدون ان يقودا المركب ، فينهالون على المسافرين ضربا ولكما عندما يرتطم الدانك ، فتاذى المسافرون جدا من جراء هذه الاهانات البربرية ، بالرغم من انهم دفعوا اجـرا عاليـــا .

كان الاباء الكبوشيون في بغداد ، حرصا منهم علينا ، قد اعارونا الوثيقة التي عندهم ، التي تخولهم حق التنقل في مختلف ولايات الانبراطورية العثمانية ومدنها ، وقد حصلوا عليها من قبل السلطان نفسه، وفيها يأمر بعدم التعرض لحاملها وبتقديم المساعدة والحماية لهم ... فكانت هذه الوثيقة جزيلة الفائدة لنا ، اذ اصبحنا اصدقاء الوالي في نظر المسافرين ، لذا لم يجبرنا الربان على النزول الى الماء عند ارتطام الدانك باليابسة .

كنا نسير في النهار ونستريح في الليل . ونظرا لالتواء مجرى النهر ، وقلة الخبرة لدى الربان ، فقد ظهر لنا انه من الصعب تكميل السفر بسلام . وكنا نتناوب الحراسة خلال ساعات الليل ، فنوقد نارا متأججة ، ونبقى في تيقظ مستمر حتى لاتباغتنا الوحوش او يهجم علينا الاعراب اثناء النعـاس . وعندما نجد محلا مأهولا بالسكان كنا نشتري الرز

---

(٢٣) من انهار ايطالية ، ينبع في جبل فيزو ويصب في بحـر الادرياتيك ، طوله ٦٧٠ كم .

(٢٤) هو ربان المركب الذي يقود الهالكين الى جهنم ، في الاساطير اليونانية القديمة ، وكان يتقاضى من كل راكب اجرة .

والسمك ، والتمر والبيض والحليب ، وكان السمك في الغالب مقددا .

كان عدد المسافرين كبيرا ، فضاق المكان بهم . فكنا نجلس القرفصاء ونتكيء على الامتعة ، لا غطاء فوقنا يقينا حرارة الشمس ، وهي في ذلك الموسم في كبد السماء ، تحرق الاجسام وتفرقها بعرق غزير ، ولم يكن باستطاعتنا تبديل جلستنا ، فهي نفسها من بزوغ الشمس حتى مغيبها .

في الخامس والعشرين من اب ، وهو اليوم السابع لمبارحتنا بغداد ، وصلنا الى قرية ، راينا فيها عددا كبيرا من البجع ، التي يسميها البعض الطيور الصيادة . فصوب احدهم البندقية الى الطيور ، فاصاب واحدا ، وكان حجمه ضعف حجم البطة ، اقدامه قصيرة ، نهايتها كنهاية اقدام الاوزة، وريشه ابيض يبلغ قطر قلم الريشة الواحدة بغلظ الاصبع ، وللبجع حوصلة يضم فيها السميكات التي يصطادها في النهر ...

صباح اليوم التالي مرنا بارض سبخة تكسوها طبقة من الملح ... وكان القوم يجمعون الملح ويعيدون غسله بالماء ثم يتركونه تحت الشمس ليجف دون استعمال النار .

بعد اميال قليلة شعرنا بوجود كمين للاعراب المسلحين بالرماح والاسهم ينتظرون وصولنا ، فاستعدينا لمناجزتهم ، فلما لاحظوا استعدادنا غيروا خطتهم فتقدموا الى حافة النهر والقواعلينا السلام .

وفي الليلة التالية ، الح المسافرون على مواصلة السفر دون التوقف للاستراحة ، فحدث ان ارتطم الدانك باليابسة اكثر من مرة ، وفي هكذا مواقف كان الانكشاريون يظهرون براعتهم في اجبار المسافرين على النزول الى الماء ، وقد راينا شيخا وضعه اصدقاءه في كيس ليخلصوه من هذا العمل الصعب .

لم نمر طوال السفر بجسر على دجلة ، ولا على الفرات . فاول جسر رايناه كان في الموصل والثاني في بغداد ، ولا جسر سواهما . ويتالف الجسر من مجموعة من القوارب . ونظرا لكثرة العلاقات بين اهالي الضفتين فقد اتقن الناس ، رجالهم ونساءهم، السباحة ، فيقطعون النهر ببراعة فائقة . ينزع الرجال ثيابهم ويضعونها فوق رؤوسهم ويسبحون. اما النساء فيقطعن النهر بكامل البستهن ، وهن يسبحن بمهارة عجيبة . وعندما يريد احدهم نقل بعض الحاجيات ، ياخذ سلة مطلية بالقار فيضع فيها الاطفال والدجاج والاغنام ، ثم يقطع النهر سباحة والسلة بين ذراعيه ، او قد يشدون تحت صدورهم زقا منفوخا يضعون فيه الحليب والدهن واشياء اخرى يريدون نقلها الى اماكن اخرى .

في الثامن والعشرين من ذلك الشهر وصلنا الى العمارة ، وهي مدينة لا باس بها تقع في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة . هناك يفقد النهر قسما كبيرا من مياهه ، اذ يتفرع الى جداول عديدة .

الفصل التاسع والعشرون : بقية السفر الى البصرة

بعد ان تركنا العمارة ، مررنا بقرى عديدة مأهولة بالسكان . وفي اليوم الثلاثين من اب وصلنا الى جزيرة ، وهناك انقسم النهر من جديد الى فرعين . وكان اعراب المنطقة قد سدوا الجدول الكبير بوضعهم حاجزا خشبيا تحت سطح الماء ، فحاولنا ازاحته ، لكن جهودنا باءت بالفشل . وفي هذه الاثناء اجتمع حولنا عدد كبير من اللصوص يحملون الرماح والسيوف والاسهم ، يقودهم شاب تبدو على محياه امارات الشجاعة . فرفع المسافرون امتعتهم ووضعوها على حافة المركب لتكون حاجزا يختبئون وراءه واتخذوا مواقع الدفاع . ثم مرت ساعات بين اخذ ورد حتى ارضيناهم ، اذ قدمنا لهم هدية تتكون من التبغ والبطيخ واشياء اخرى مختلفة ، فتعهدوا بتركنا وشاننا فنمر بسلام . فنزل بعض افراد المركب الى القاع لزعزعة الخشبة عن طريق الدانك ، فدفعها البعض من جهة وجرها الاخرون بالحبال من الجهة المقابلة . وكان زعيم الاعراب قد ابتعد ، فانتهز اتباعه الفرصة وسرقوا بعض الاغراض ، اذ فقد احد الركاب عمامته والاخر سيفه ، كما سرقت جبب الكثيرين من المسافرين .

في تلك الاثناء كان الاب جوزيبه(٢٥) قد انتحى جانبا لتادية صلاته ، فلمحته نساء كن في تلك الجهة يغزلن الصوف ، فانتهزن الفرصة للايقاع بالرجل الغريب ، واتفقن على راي شرير ، ثم تقدمن الى حيث كان الرجل ، ورفعن عقيرتهن واخذن يوبخنه . واذ كان الرجل جاهلا العربية ، لم يفهم غايتهن من الصراخ والتهديد ، لكنه شعر بحراجة الموقف ، فتملكه الخوف ، ولم يعرف كيف يعبر عن اسفه ، فهرعت اليه مع بعض التجار ، فسمعنا النساء يدعين ان الرجل سرق اساور فضية من احدى النساء ، وكانت الباقيات يؤيدن التهمة ، واخذ بعض

---

(٢٥) هو جوزيبه سبستياني (١٦٢٣-١٦٨٩) رئيس الوفد المتوجه الى الهند ، مر بالعراق اربع مرات ١٦٥٦ و ١٦٥٨ و ١٦٦٠ و ١٦٦٤ ، ترك وصفا لرحلاته ضمه في مجلدين طبعهما بالايطالية .

الصبيان يصرخون قائلين انهم راوا الرجل الغريب ينتزع السوار من المراة ، لم تنطل الحيلة على الرجال ، وكانوا على اقتناع تام من كذب النساء ، بل ان ازواج النساء انفسهم رفضوا تصديق ادعاء نسائهم فاخذوا يقرعونهن بقارص الكلام ...

وعند حلول الليل ، وكان الظلام حالكا ، خاف قائد المركب من حدوث ما لا يحمد عقباه ، فجمع من جديد هدايا متنوعة وارسلها الى شيخ العصابة، طالبا منه ارسال رجاله لحراستنا ، فلبى طلبه، وهكذا استطعنا ان ننام مطمئنين . وعند منتصف الليل حدثت موجة قوية فانحرف المركب عن موضعه ...

شاهدنا على ضفاف النهر ، عددا كبيرا من اشجار الكبر ، وهي من النوع الكبير للغاية ، ولها ازهار كبيرة ، وقد اينعت ثمارها فكانت بحجم البطيخ الصغير ، وكانت اعداد كبيرة من العصافير قد بنت اعشاشها في تلك الاشجار ، والعصافير من جنس الكراكي او اصغر منها بقليل ، لها ذيول طويلة، ريشها متجمع ، بحيث تظهر عند طيرانها وكانها تحمل كرة في نهاية جسمها .

وكانت ضفاف النهر ماهولة بالسكان ، فهناك قرى عديدة متجاورة ، اهمها : المجر وقصر بني Beini وبريدي Bridi وهذه قرية كبيرة . وكانت اسعار المواد في تلك الجهات بخسة جدا ، فقد اشترينا اربعا وعشرين دجاجة وخروفين بطالر واحد ، ولاحظت ان الاهالي لا يرغبون كثيرا لحم الابقار . كما ان منتوجات الالبان كانت متوفرة خاصة السمن الحيواني ، اذ كانوا يصدرون كميات كبيرة منه في القوارب المتوجهة الى البصرة ، والى سائر الاماكن القريبة . وبالرغم من وجود هذه الخيرات الكثيرة التي رايتها بنفسي ، فاني لم المس في الشعب بوادر الراحة او ملامح الغنى ، فبيوتهم اكواخ حقيرة ، جدرانها وسقوفها وكل ما فيها من اثاث هي حزم من القصب لا غير . وقد سمعت ان تعاسة الشعب تصل الى حد انه ينتج كل تلك الكميات الهائلة من السمن لكنه لا يذوقها بل يضطر على طبخ طعامه بالشحم . ورايتهم يجمعون العسل البري بكميات كبيرة من الغابات المجاورة . وليس لاولئك القوم انية من الخشب للغسيل بل يستعملون طشوت خزفية خفيفة الحمل وجيدة . ويكثر السمك في تلك الجهات ، ويصطادونه بطريقة غريبة، منهم يشقون ترعا قرب النهر ؛ ثم يفتحون الماء اليها، فبعد ان تمتلي بالماء ، يسدون الفتحة ثم يتخلصون من الماء تدريجيا فتبقى الاسماك بكميات كافية لغذائهم ، ويعمدون الى تقديد القسم الاكبر من السمك بالملح ، وبعضهم يقلون السمك بالدهن بعد ان يضيفوا اليه شيئا من الدقيق والثوم او البصل .

عندما وصلنا الى حدود ولاية البصرة راعني في قرية بريدي ، وقع حادث طريف ؛ لكنه كاد ان يتطور ويتحول الى نزاع بين رجلين . احدهما تاجر والاخر اسكافي . وكان الاسكافي قد حمل عددا كبيرا من « البوابيج » وهي الاحذية التركية ليبيعها . فحدث في هذه البقعة ان التاجر فقد حذاءه ، او اخفاه بطريقة ما ، فطلب من الاسكافي حذاء ، فذكر الرجل سعرا ، لكن التاجر رفض ذلك السعر ، واضاف ، ان الحياة الجماعية في المركب وحراجة الموقف تحللان عليه اخذ الحذاء دون مقابل. فانقسم المسافرون بين مؤيد لهذا او لذاك ، وبعد جدال طويل طلب التاجر اخذ الحذاء كامانة، فيميده اذ ماعثر على حذائه ولا فيستملكه ، لكن الاسكافي رفض الاقتراح ، اخيرا ذهبا ليحتكما عند الانكشاريين ، فلما وصلا اليهم شاهدا الهراوات بايديهم وهم على استعداد تام لاستعمالها ... فامروا بالعمل كما يريد التاجر ، وهكذا كان اذ رضخ الاسكافي لامرهم وقرا على العدل السلام .

في اليوم الخامس من ايلول [١٦٥٦] وصلنا الى المنصورية ، حيث يلتقي دجلة بالفرات فيكونان نهرا واحدا يسمى شط العرب . وتجري مياه دجلة في جهة ومياه الفرات في الجهة الاخرى من هذا الشط، وبالامكان ملاحظة المياه العكرة في الجهة اليمنى ، بينما ترى مياه الفرات اكثر نقاء . وشط العرب عريض جدا ، يكاد ان يكون بحيرة عظيمة ، بحيث ان الشخص الواقف على هذه الضفة لا يستطيع التعرف على الاشخاص الواقفين في الجهة الثانية .

هناك في البقعة الواقعة عند ملتقى النهرين ، قلعتان قريبتان من ضفاف الفرات ، لهما مظهر القوة والحصانة لكثرة ما فيهما من الابراج العالية والجدران العديدة فوق الاسوار ، فهما والحالة هذه تصلحان لمقاومة هجمات البدو نظرا لافتقارهم الى المدافع والاسلحة النارية ، لكنهما لن تقفان امام الاسلحة الحديثة .

ان الاراضي الواقعة على ضفتي النهر جميلة للغاية وخصبة جدا ، ويكثر فيهما الرز وانواع البقول ، كما تكثر هناك اشجار النخيل . ويستقطر القوم من ثمر النخيل شرابا كحوليا قويا جدا هو العرق . وثمر النخيل طيب المذاق ، يتناوله الاهالي طيلة ايام السنة .

وعند المساء مررنا بقلعتين اخريين ، تسمى الاولى « قلعة المدينة » El Medina والثانية الفتار Elphatar . وفي صباح اليوم التالي وصلنا الى تورنيس Tornes وهي مدينة واسعة لا بأس بها ، مربعة التخطيط ، لها سور وخمسة عشر برجا من كل جانب ، يحيط بسورها فرع من النهر غزير الماء . هناك اوقفونا عن السير يوما كاملا لتأدية الرسوم وانواع الضرائب التي تجمع باسم والي البصرة . وقد تم خلال توقفنا هناك اصلاح شراع المركب ...

كانت جماعة من المسافرين تحمل قطعة كبيرة من النحاس مدورة الشكل مثقوبة الوسط ، عليها نقوش واسم الجلالة باحرف كبيرة ، وكانت القطعة محمولة على بيرق ، وقالوا انها شعار طائفتهم ، ولها قوة منح الشفاء للمرضى ، لذا كانوا يبجلونها ويكثرون من لثمها والتبرك بها ، وينقلونها معهم في اسفارهم . وعندما نشبت مشاجرة بين طرفين يهرع احد الحاضرين فيضع البيرق بين المتخاصمين ويستحلفهما على التوقف عن النزاع ، فيكفان اكراما لهذا البيرق المبارك .

... كنت احمل بعض العقاقير الطبية فاستفدت منها كثيرا ، وافدت بها الاخرين .

ان الصحراء الواقعة قرب الخليج غير مطروقة، ورمالها دقيقة جدا وخفيفة للغاية ، كما ان الشمس تحرقها في فصل الصيف ، فما ان تهب الريح الشرقية ، في اواخر شهر اب ، وفي ايلول خاصة ، حتى تتعالى كميات هائلة من تلك الرمال وكانها ضباب ، فتعكر صفاء الجو ، وتجعل التنفس صعبا وثقيلا . وقد اختبرنا بانفسنا هذه الظاهرة ... فلما هبت الريح اظلمت الدنيا ، وضاق صدرنا كثيرا ! ...

مررنا في الصباح ، قبل وصولنا الى البصرة، بموقع يسمى العين ، ويظهر ان هذه القرية كانت فيما مضى اجمل مما هي عليه الان ، فقد فقدت اهميتها ، لكن اراضيها لا تزال صالحة للزراعة وخصبة ، نظرا لكثرة المياه هناك ، ولا تزال بعض ابنيتها قائمة . كما توجد جزيرة صغيرة مقابل القرية عليها ابنية واشجار كثيرة ، وقد قيل ان الوالي يأتي الى هذا المكان طلبا للراحة وممارسة الصيد نظرا لكثرة الغابات هناك .

عندما وصلنا الى المرفأ ، نظرنا فاذا بسفن الهولانديين والانكليز والبرتغاليين والاتراك راسية هناك في الشط ، ففرحنا جدا لمشاهدتها ، فقد ارتحنا لوجود سفن تقلنا الى الهند .

ولما وصلنا الى القنال لم يعد بامكان الدانك التقدم بسبب الجزر ، فمنعنا الربان من النزول الى اليابسة وامرنا ان نعد امتعتنا لنمر كلنا سوية امام مركز جباية الرسوم . ثم ذهبنا الى دير الكرمليين(٣٦) في البصرة ، فاستقبلنا الاخوة الرهبان بمظاهر الفرح والمحبة .

لقد اعجبنا دير الكرمليين ، الذي يعد من بيوت البصرة الحديثة ، وفيه مختلف المرافق الضرورية الخاصة بالاديرة . هناك فناء تحيطه اروقة ، وفي وسطه حديقة عامرة بالازهار ... وكانت كنيسة الدير على اسم العذراء مريم عليها افخر السلام ، وكان هيكل الكنيسة مزين بالقاشاني الايراني ، وفيه رسوم مختلفة ، منها شعار الرهبانية [الكرملية] واسم سيدنا المسيح واسم مريم العذراء ، وفي الجهة الشمالية من الهيكل كان رسم مزهرية جميلة تعلوها نقوش عربية متداخلة موشاة بماء الذهب .

هناك في الطابق الارضي غرف الاستقبال ، اما الطابق الاعلى ففيه صوامع الرهبان تعلوها السطوح التي ينام فوقها الرهبان في الصيف ، لان الحر لا يحتمل داخل الغرف .

يعاني الرهبان كثيرا من اجل صيانة الدير ، لان مواد البناء رديئة ، فهي في الملاط والاجر المفخور قليلا ، وهذه المواد تتاثر كثيرا بالامطار ، بالرغم من قلة هطول الامطار في تلك الاصقاع .

الفصل الثلاثون : البصرة

تعتبر مدينة البصرة من اقدم المدن في المنطقة العربية . وقد طبقت شهرتها الافاق لاسباب عديدة، فهي موطن رجال مشهورين كابن سينا مثلا(٣٧) ، وهي قبلة الكثيرين من مختلف القوميات لانها محطة مهمة على الخليج العربي ، ولها اهمية بالغة في نظر المسلمين لانها من اولى المدن التي خضعت للفتح الاسلامي(٣٨) . اما عماراتها فليست على جانب كبير من العظمة ، وليس فيها ما يجدب النظر ، وتتناثر دورها بين غابات النخيل .

تقع البصرة بالقرب من خط الاستواء ، وفي نهاية الارض العربية الصحراوية وبدء الارض العربية

---

(٣٦) قدم الكرمليون الى العراق سنة ١٦٢٣ ، وما يزالون فيه الى اليوم ، نصري : ذخيرة الاذهان ٢ : ١٩٥ و
Rabbath, op. cit., I, p. 388,

(٣٧) ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) ولد في اخشنة قرب بخارى وتوفى في همذان . فكلام صاحبنا وهم .

(٣٨) المعروف ان البصرة شيدت في صدر الاسلام فهي لم تخضع لفتح .

الصخرية(٣٩) . وهي على حدود المملكة الايرانية من جهة ، ومن الجهة الاخرى الارض الخاضعة لامير القطيف ، ومما يزيد من اهمية موقعها هو النهر ، خيراتها وافرة نظرا لوجود البحر ، حدائقها كثيرة ، حقولها شاسعة ، نخيلها وفيرة ، تأتيها البضائع من مختلف البلاد : من بلاد العرب ومن فارس وتركية ، ومن الهند بنوع خاص ، اذ تصلها السفن محملة بمختلف منتوجات الهند . وتكثر في البصرة انواع المأكولات ، وهي من احسن الانواع واطيبها .

للبصرة ماخذ واحد ، الا وهو الحر الشديد الذي يعذب سكانها ، اضف اليه ، الرمال المحيطة بها التي تهجم عليها مع هبوب الرياح الشرقية ، فيتعكر صفاء الجو ، ويلجأ كثيرون عند ذاك الى النهر ويرمون بانفسهم فيه ؛ تخلصا من الحر والرمال ، ويصرفون نهارهم في الماء ...

لا تمطر السماء في البصرة الا نادرا ، قد تبلغ ثلاث مرات خلال اشهر الشتاء ، ولكن عندما تهطل فانها قوية جارفة ، تهدم المنازل ، لان معظمهامشيد بالجص واللبن . اما في الفصول الاخرى ، فان النهر يسقي الحقول ولولاه لاحترقت الارض .

كان وصولنا الى البصرة في مطلع شهر ايلول [١٦٥٦] ، وكان المناخ حارا ...

كانت في منطقة البصرة ، قبل قرون كثيرة ، تنتشر بيوت الصابئة ، على نحو مئة ميل طولا وعرضها اقل من ذلك بقليل ، وتتكون هذه المنطقة من جزر متعددة ، يقطنها الى اليوم جمع غفير من ابناء هذه الطائفة. يتكلمون لغة قديمة خاصة بهم.

بعد ان خضعت هذه المنطقة لحكم السلطان ، اخذ يعين حكاما لادارتها حسبما يشاء ، وكما تتطلب مصالحه . لكن بعد هذه المنطقةالشاسع عنإسطنبول جعلها في حالة قلقة مستمرة ، فكان السلطان يخشى فقدها ، بينما كان ولاة [البصرة] يتمنون ادخالها تحت سيطرتهم ... وكان الصابئة ينشدون الحرية ، فلا يخضعون لاحد عن طيبة خاطر ، لهذا كانوا يبدلون ولاءهم حيث يجدون فائدة اكبر . وكان العرب المجاورين للصابئة يميلون الىالسلطان العثماني اكثر مما للحكم الايراني . لذا اخذ الباب العالي يسند ولاية البصرة الى شخص عربي يتوقع منه ولاء وخضوعا . وبقدر ما كان الوالي يشبع جشعه بقدر ذلك كان يزداد خضوعا للسلطان .

انطلاقا من هذه الفكرة ، اسند الباب العالي ولاية البصرة الى شخص عربي ، فكان خاضعا وموواليا فترة طويلة من الزمن ، كما كان يؤدي الرسوم المقررة في مواعيدها . لكن الطموح كان ينمو في نفسه ، ورغبة السلطة تتحكم في داخله ، كما كان عرب المنطقة يحثونه على الاستقلال ، كما وعده البرتغاليون بمساندته ، اخيرا اخذ العامل الايراني يساعده لتحقيق امنيته . وفي تلك الفترة كان والي بغداد(٤٠) قد قرر نفض نير الطاعة عن كاهله واعلان استقلاله ، فاخذ يبني الحصون والقلاع ، ويجمع المريدين لتقوية مركزه ، حتى حان الوقت فاعلن عصيانه . ودامت هذه الحالة في عهد الذين خلفوه ، اذ حاولوا ، هم بدورهم ، الحفاظ على استقلالهم(٤١) .

ان لحاكم البصرة الحالي(٤٢) ، طريقتهالخاصة في دعم مركزه وتقوية استقلاله . فهو بعد ان درس الاوضاع ، راى ان الشاه الايراني لا يحرك ساكنا ، ولا يفتش عن العظمة والمجد . والبرتغاليين مخذولين ، بينما كان نجم السلطان العثماني في تصاعد ، اذ انه استعاد شيئا من سابق مجده بعد ان استرجع بغداد . لذا اخذ الوالي يحاول ارضاء كافة الاطراف لاكتساب حمايتهم جميعا . فيرسل هدايا الى الشاه الايراني مظهرا الولاء دونالخضوع، ويبعث الهدايا الثمينة الى الوزراء وكافة ذوي الكلمة النافذة في اسطنبول .

وحدث فيالسنواتالقليلةالماضية، انالجيشكان عاطلا عن الخارجية ، وكان والي بغداد احدالمحاربين المخضرمين ، وهو مرتضى باشا(٤٣) . فاشار الباب

---

(٣٩) يميز الكاتب Arabia Petrea, Arabia deserta

(٤٠) هكذا في الاصل ، والاصح والي البصرة ، لان الكلام يدور عن هذه المدينة .

(٤١) يتكلم فنشنسو عن اخر اسباب الديري الذي حصل على ولاية البصرة من طريق الشراء ، ثم استقل في ادارتها ، وخلفه من بعد ابنه علي باشا . (الكعبي : المرجع المذكور. لوتكريك : المرجع نفسه . الاعظمي : تاريخ البصرة ص ١٢٨–١٣٠) .

(٤٢) هو حسين باشا ابن علي باشا ، اجمع المؤرخون على ذم سيرته وادارته . انظر المراجع المذكورة انفا ، وكلشن خلفا ص ٢٤٨ . علي الشرقي : ال افراسياب وخراب الجزائر في مجلة لغة العرب ٤ (١٩٢٧) ص ٥٧٥–٥٧٨ ، العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٥ : ٤٧–٥١ .

(٤٣) كان مرتضى باشا برتبة سلحدار ، وولي الشام والروم ، ثم صار واليا على بغداد سنة ١٦٠٣هـ وبعد سنتين نقل الى حلب . اما حملته على البصرة فكانت سنة ١٠٦٤هـ وقد نجحت في اول الامر ، واذ اساء التدبير انقلب عليه جيشه واهل البصرة فعاد الى بغداد يجر اذيال الفشل ، وعلى اثر ذلك رجع حسين باشا الى البصرة وتولى امرها من جديد .

العالي عليه ، بأن الفرصة سانحة لتأديب البصرة ، خاصة وان الشعب العربي في البصرة اخذ يتشكى من اميرها . فاعد جيشا قويا وقام بحملة جارفة على البصرة ، اذ ارسل الجيش في طريقين ، سلك قسم منه طريق البر ، وانحدر القسم الثاني في دجلة والفرات .

كانت الحملة شديدة للغاية ، فانكسر الامير منذ الهجوم الاول ، فطابت نفس مرتضى باشا بهذا الانتصار السريع ، ورؤيته للناس يسرعون الى خدمته ، والاموال تهطل عليه بغزارة كالمطر ، والحظ وقد ابتسم له ، فقرر البقاء في البصرة والاحتفاظ بها تحت سلطته . وهكذا اظهر علامات التحرر والاستقلال ، يدفعه الطمع ، فتاسف العرب لما حدث ، وجدوا في طلب الامير القديم ، الذي كان بدوره يعد العدة للرجوع ويجمع المريدين ، فقد اعلن رفضه الخضوع للغريب ، فشن الهجمات ، حتى اجبر مرتضى على التقهقر ، فانسحب يجر اذيال الخيبة والخذلان .

ما ان عاد الامير الى الحكم حتى ركبه عفريت الطمع ، فقد كان بامس الحاجة الى الاموال ليبذلها في كسب ولاء الشيوخ ، وتوطيد دعائم حكمه ، واقامة علاقات سرية ، وعقد صداقات جديدة ، وتكديس الاموال ، والاستعداد لحملات قادمة . فاخذ يتذرع بمختلف الوسائل والحيل من اجل انتزاع الاموال ، ووضع ضرائب جديدة مختلفة ، وقاده طمعه الى القيام بامور لا تليق بمنزلته .

تدخل على الامير اموال طائلة ، تجمع من الرسوم والضرائب العادية ، الى جانب الهدايا الكثيرة التي يرسلها المريدون الخاضعون له ، اضافة الى رسوم التجارة والحج . ففي كل عام تسير قوافل الحجاج الى مكة [المكرمة] ، وهؤلاء الحجاج ليسوا من ابناء المنطقة فحسب بل يأتي الكثيرون من ايران والهند ، فيتجمعون في البصرة لينطلقوا من هناك الى مكة . ويدفع كل واحد منهم الى الامير رسما مقدما قدره قطعتين من « زكيتو » (٤٤) مقابل المحافظة على حياتهم وارسال جنود لحراستهم في الصحراء . ان هذا الرسم يكون في نهاية الامر مبلغا كبيرا من المال .

وقد رأينا لدى وصولنا البصرة ، واحدة من تلك القوافل ، فكان عدد افرادها كبيرا ، وهي اشبه ما تكون بالجيش العرمرم ، وقد قدر الحاضرون عدد الحجاج باكثر من خمسين الف حاج ، وكانت القافلة تضم اعدادا من المرضى والمقعدين والشيوخ ، وسيفارق الكثيرون منهم الحياة اثناء السفر ، وكانت امارات الفرح على محياهم وهم على اتم الاستعداد للاقاة ربهم ، لانهم يعتبرون من يموت في طريق الحج سعيدا . ان هذا العدد الهائل من الحجاج ، يعطينا فكرة عن واردات الامير .

ان سمعة امير [البصرة] الحالي سيئة جدا ، فقد اذن بفتح البيوت العامة في المدينة ، وهذا امر ينافي تقاليد العرب ، وهي بيوت الغناء والطرب والرقص ومختلف الامور المشينة ، بينما يتدرع [الامير] بالتقوى المزيفة ، فيذهب كل يوم الى المسجد الكبير ، الذي شيده على نفقته ، وهذا العمل ليس من عادة العظماء ، والجامع المذكور واسع الارجاء ، مزين بالنقوش والزخارف الفارسية . وهكذا يحاول تغطية اعماله الشريرة بتقوى كاذبة وتعبد مزيف مليء بالرياء ...

تجمع البصرة اقواما مختلفة من كل فج عميق ، ففيها الاتراك والفرس والعرب والغرباء واليهود والارمن والصابئة [ونصارى] من مختلف الطوائف المسيحية . ويمارس هؤلاء كلهم شعائرهم الدينية بحرية . ويظهر ان الامير يميل بنوع خاص الى الاوروبيين . وقد اظهر شعوره هذا في مناسبات عديدة . وكان ينظر الى الاباء الكرمليين نظرة ود واحترام ويلبي طلباتهم ، وقد زار ديرنا اكثر من مرة ، وكانت زيارة اصدقاء ، فكان يعاملهم [على قدم المساواة] كالدراويش المسلمين . وعندما اتيت الى البصرة كان رئيس ديرنا هناك على علاقة جيدة بالامير ، وكان قد اوصاه الا يمر اسبوع دون ان يزوره ، وكان الامير يستقبله ببشاشة واحترام ، ويجلسه الى جانبه ، ويفتح له قلبه ويسره في الامور التي تشغل فكره ويطلب رأيه فيها . فالرجل ، والحق يقال ، يعيش على اعصابه ، لانه يخشى على الامارة ان تنتزع منه . وقد طلب اكثر من مرة وضع تخطيط للمدينة ، وطريقة تحصينها جيدا على مثال ما تم تطبيقه في مالطة ، وكان يستفسر عن مدى مقاومة هذه التحصينات لعساكر السلطان . كما كان يريد تحصين القرنة وتقويتها كي يعيش فيها بامان وسلام . وقد باشر فعلا ببناء مخططين لمدينة بالقرب من النهر ، ثم توقف عن البناء ، وبالامكان مشاهدة ذلك . وقد قيل لي ان سبب توقفه عن

(٤٤) ذكر بعضهم ان هذه الكلمة هي تحريف لكلمة « سكة » العربية . والتركيتو نقد من الذهب ، كان يساوي في البندقية اثني عشر فرنكا فرنسيا ، وفي البلاد الشرقية كان يساوي في سبعة فرنكات الى تسعة . (ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام) ترجمه فؤاد جميل ومصطفى جواد (بغداد ـ ١٩٦٧) جـ ٢ ص ٤٠ ، العزاوي : تاريخ النقود العراقية (بغداد ـ ١٩٥٨) ص ١٣٢ .

البناء هو قلة الجص الذي يجلب من اطراف الخليج، وافتقارهم الى الحطب الذي يشعل عن فخر اللبن ، لذا نرى الناس في هذه الجهات يجمعون روث الحيوانات ويخلطونه بالتبن ثم يعرض للشمس ليجف ويستعملونه كوقود عند طبخهم الطعام .

وصلت الى البصرة قبلنا بقليل ، قافلة من الصبيان والفتيان من روسيين ويونانيين ومجريين وبولنديين ، وكان الاتراك قد جمعوهم واتوا لعرضهم في سوق النخاسة ، فترى الكثيرين يأتون الى السوق لرؤية هذه البضاعة ، ويشترون ما يريدون ويتساومون على الثمن وكانهم في سوق الغنم ...

الفصل الحادي والثلاثون : الصابئة او نصارى القديس يوحنا(*)

***

الفصل الثاني والثلاثون : مغادرة البصرة

طاب لنا البقاء في البصرة ... لكن الواجب كان يدعونا الى الهند . واذ تأكدنا من وجود سفينة هولندية جميلة اسمها فليلاند ذهبنا اليها ... وذلك في الحادي عشر من ايلول ، فركبنا قاربا جميلا مفروشا بالسجاد الثمين ، وسارت من حولنا قوارب اخرى تحمل رؤساء السفن الذين ابوا على انفسهم الا ان يودعونا الى السفينة بالطبول والزمارات والبيارق الخفافة ... فسارت الزوارق في الشط والناس على ضفافه ينظرون الينا ... ومما جلب نظري كثرة السلاحف على حافة النهر ... وعندما وصلت الزوارق قرب السفينة ، اطلقت مدفعيتها بعض العيارات النارية تحية لنا ...

اقلعت السفينة بعد منتصف النهار بقليل ، فمررنا بقصر شامخ يخص الامير ، لا يبعد كثيرا عن المدينة ، ويبدو القصر فخما ومريحا .

في اليوم الثالث وصلنا الى نهاية الشط حيث يصب في الخليج ، وكان سفرنا بطيئا ، اذ لا تمخر السفينة الا في ساعات المد البحري .

هناك عند مصب الشط في الخليج جزيرات عديدة ، تسمى احدى الجزر باسم ابينا يعقوب ، اذ يقول الاهالي ان يعقوب سكن فيها فترة من الزمن .. وبعد ان عبرنا جزيرة خرق تركنا المرشد وعاد ادراجه فابحرنا الى غومرون(٥٧) .

(*) رأينا من الافضل حذف هذا الفصل ، لانطوائه على مردود طائفي يخدش عقائد المتدائيين ومواطفهم . (المورد)

(٥٧) هو ميناء بندر عباس .

الكتاب الخامس(٥٨)

الفصل الرابع عشر : العودة الى البصرة

... منذ ١٧ حزيران [١٦٥٨] قررنا السفر الى البصرة ...

وصلنا اليها في ٣ آب ... قبل ايام قليلة وصل الى مسقط السفير التركي ، وقد وردته رسائل من بغداد ، كان فحواها ان السلطان لم يسر بسفارته ، فارتبك جدا وملأ الخوف كيانه ، وخاف على مصيره ، وكان مترددا بين امرين : الرجوع وتوقع المصير المظلم ، او الهروب(٥٩) .

في هذه الايام تفضل الوالي بزيارة ديرنا في البصرة ... وعندما دخل الى بستان الدير لاحظ قلة الخضار فيه ، فسأل عن السبب ، قيل له ان الماء قليل ، فامر بشق ترعة على حسابه من النهر الى الدير ، فتم ذلك بوقت قصير(٦٠) .

الفصل الخامس عشر : السفر من البصرة الى بغداد عن طريق نهر الفرات

... تركنا البصرة في ١٦ آب [١٦٥٨] وكان المركب يسير بعكس مجرى الماء ، لذلك استغرق اربعة ايام للوصول الى قلعة القرنة ، ومن هناك الى كوي Goi والمدينتين due Medine والمنصورة وفي اليوم السادس وصلت الى الساقية، وفي اليوم التالي مررنا بالجزائر Gezzael حيث وجدنا عددا كبيرا من نصارى القديس يوحنا ... ثم مررنا بالشالوشية حيث ينفصل دجلة عن الفرات ... وكان الحر شديدا ، والذباب كثيرا ... صباح الرابع والعشرين وصلنا الى سالسور Salussur وعند المساء وصلنا الى معمر Marmer ، وهذه وغيرها من القرى صغيرة جدا اكواخها حقيرة مبنية بالطين او القصب. في اليوم التالي وصلنا الى العرجاء(٦١) وتقع على الحدود الفاصلة بين ولايتي البصرة

(٥٨) يصف الكتاب الخامس حوادث السفر من الهند الى ايطاليا ، تركنا الفصول الاولى لانها لا تخص العراق .

(٥٩) السفير هو حسين ابن الامير فخرالدين المعني ، ذكره مفصلا زميل فنشنسو وهو سبستياني (جـ١ : ١٩٤-١٩٩) نوه به كلشن خلفا ص ٢٥٢ وكانت السفارة على عهد محمد باشا الخاصكي والي بغداد (لونكريك : المرجع نفسه ص ١١٥) . عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الامير فخرالدين المعني الثاني بيروت - ١٩٦٦ .

(٦٠) كان الوالي حسين باشا ابن علي المار ذكره .

(٦١) العرجاء او العرجة تقع شمالي الناصرية بنحو ثلاثة كيلومترات (يعقوب سركيس : مباحث عراقية ٢ : ٣٧٤) .

وبغداد ، وتعتبر العرجاء بدء ولاية بغداد . فتوقفنا هناك يومين طلبا للراحة ، وذلك لوجود مرضى كثيرين بين المسافرين ، وكان الربان يداويهم باعطائهم جرعات من العرق بعد ان يذيب فيه مسحوق التتن ، فاستفادوا منه كثيرا واخذ العرق يتصبب من اجسامهم ، فارتاحوا قليلا ، وكان قائد سفينتنا يعاقر بنت الحان بافراط .

في ٢٧ آب كان المناخ حارا لا يحتمل ... فنزلنا كلنا الى الماء ، وكانت المنطقة صحراوية ، وكنا نسمع زئير الاسود من كل الجهات ، لانها كانت بدورها تتألم من شدة الحر والجفاف العام الضارب اطنابه في تلك الاصقاع . وعندما حل الليل ، خفنا من هجوم الاسود ، فاوقدنا نارا عظيمة ، ووقف الرجال يحرسون المسافرين بالتناوب . وعند منتصف الليل خمدت النار ، ورقد الحراس ، فاقترب اسد من المسافرين ووصل على بعد عشرين خطوة منا ، وفي تلك الاثناء قام احد الاتراك صدفة فراى الاسد على مقربة منه ، فصرخ يطلب النجدة ، فقام الجميع ، وقبل ان يفهموا سبب الصراخ اطلقوا نيران بنادقهم وغلا صياحهم ، فهرب الاسد ...

في الحادي والثلاثين من آب وصلنا الى السماوة ، وهي قرية واسعة ... وكان ربان السفينة ثملا ، فكاد يقذف بصبي وامه من القارب ليتخلص من دفع الرسوم عنهم .

لم يجد رجال الكمرك شيئا يخضع للرسوم بين امتعتنا ، فاحتاروا كيف ينزعوا المال منا ، فاتهمونا اننا من اهالي البندقية ، وهددونا بالسجن . فقلنا اننا من اتباع الطوبجي باشي اي قائد المدفعية في بغداد ، وهو نصراني ، اصله من كريت(٦٢) . كان يحترم الرهبان ، فتركونا وشأننا ، فقدمنا لهم بعض الهدايا لنتخلص من الحاحهم . عادوا في اليوم التالي فقالوا ان الخادمين المرافقين لنا قد هربا من اصحابهما ولذا لابد من اخذهما . نعدنا الى النقاش ... ولاحظ رجال الكمرك شخصا يحتضن طفله فطلبوا الرسم عن الطفل . واذ كان المسكين معدما ، انتزعوا الطفل من حضنه تاركين اياه في يأس مرير .

... في التاسع من الشهر نفسه وصلنا الى قرية فاذا باهاليها يحتفلون بعيد الاضحى وذلك بعد انتهائهم من الصيام ، فينحرون الذبائح كما فعل سيدنا اسحق...(٦٣) وقد شاهدنا الفتيات العربيات يرقصن ، فكانت الفتاة تصعد على كتف رفيقتها وهي تضرب الدف الذي تمسكه بيدها بينما ترقص الفتاة الاخرى وتقفز ببراعة ، وكانت الصبيات الاخريات يرقصن كلهن على ايقاع واحد متناسق .

تتكون البستهن من رداء طويل ، عريض الاكمام ، ولا يتمنطقن بحزام ، وكان شعرهن طويل مسترسل ، وقد لففن اشرطة من الغماش على رؤوسهن ، وزين عيونهن بلون اسود حالك جعل منظرهن مخيفا وصبغن اظافرهن واصابعهن بلون احمر قرمزي(٦٤) . هكذا كن يعبرن عن فرحهن وينفسن عن شقائهن .

ان حياة هؤلاء الناس صعبة للغاية ، منهم لا يملكون شيئا ، اللهم خيمة او كوخا حقيرا ، بدون اثاث ، ولا يتمتعون بالحرية ، يقضون حياتهم في الحقول ، ويقاسون الامرين من تبدلات المناخ ومن العوامل الطبيعية . ورغم كل هذه التعاسة ، يعدون انفسهم اسعد خلق الله ، لذا تراهم فرحين ، يكتفون بالاسمال كساء ، وباللبن طعاما ، وبالارض منامة والسماء لحافا .

وحالة رؤسائهم تكاد ان تكون بنفس المستوى . يعتبرون الطموح نحو الاكثر والاحسن طمعا وغباء وتنكرا للقضاء والقدر .

بعد استراحة قصيرة ، وبعد ان تزودنا بالطعام ، سرنا الى « قادر » (Cader) ثم الرماحية (Romaia) وهي قرية كبيرة ، فيها قائد له تحت امرته عدد من الجنود ، فاذا بهم يطلبون الرسوم ، اعدنا على مسامعهم ما سبق وان تدرعنا به وهو اننا من اتباع قائد مدفعية بغداد فتركونا نعبر بحرية ..

كان الربان قد وعدنا ، اذ كنا في البصرة ، انه يوصلنا بعد الرماحية بطريق البر الى بغداد ، لان هذا الطريق يستغرق خمسة ايام لا غير ، فطلبنا منه الجياد ، لكنه امتنع عن تحقيق رغبتنا ، ثم استأجر زورقا صغيرا اسرع من الدانك ، فركبناه وعبرنا الى Cofcus ، هناك هجم علينا اعراب ، كانت السباع قد افترست بعض مواشيهم ، فطلوا الامل بربح سهل من عندنا ، لكننا اسرعنا الى اسلحتنا فتركونا وهربوا .

---

(٦٢) انظر هامش ٣٠ .

(٦٣) لا دخل للصيام بعيد الاضحى . فقد اخطأ فنشنسو في قوله .

(٦٤) يريد الحناء . والصبغ بالحناء عادة منتشرة في بلادنا الى اليوم .

بعد قليل التقينا برجل يسير في النهر في سلة مطلية بالقار(٦٥) ، وهي كثيرة الانتشار بين العرب ، وكان الرجل يجد في طلب قائد السفينة ، فصعد الى زورقنا ، وبعد ان تفاهم معه اخذ ورقة وكتب عليها ثم ربط الورقة تحت جناح حمامة كانت معه . فاطلقها بالهواء ...

اخيرا وصلنا الى الحلة في ١٦ ايلول [١٦٥٨] وكنا نسير بمحاذاة ضفاف جميلة ، عامرة بالنخيل والاشجار المثمرة ، فمكثنا هناك يومين .

في رأي الكثيرين ان بابل القديمة تقع في هذه البقعة ، فالموقع على الفرات ، والاراضي خصبة ، كما هناك اثار ماثلة ، منها البرج الشهير الذي يطلق عليه الاهالي اسم برج نمرود . كنا نتمنى زيارة هذه المواقع ، لكننا لم نجد مرافقا ، كما اننا تخوفنا من اعراب المنطقة ... فلم نذهب .

في هذا المكان اعدنا طلبنا من الربان بان يجهزنا بخيول كي نصل الى بغداد باسرع وقت ، لكنه تذرع بمختلف الاعذار واظهر انواع العراقيل ، وفيما نحن بهذه الحالة ، وصلت الى هناك قافلة صغيرةمتكونة من رعايا ايرانيين عائدين من زيارة مشهد علي(٦٦) ، متجهين صوب بغداد ، فاستاجرنا جيادا وانضممنا الى القافلة بعد ان عبرنا النهر في مساء ذلك اليوم نفسه ...

صباح اليوم التالي عدنا الى الطريق ننهب الارض ، وبعد سويعات ابصرنا بغداد عن بعد .. ولما وصلنا الى المدينة وهممنا بعبور الجسر هجم علينا الحراس وحاولوا القاء القبض علينا ، مدعين ، ان الوالي ، قد سمع بقرب وصول بعض الفرنسيين وهم بطريقهم الى ايران ، لمساعدة الجيش الايراني الذي كان يعد العدة للهجوم على بغداد واستراجاعها من السلطان العثماني . لذا اعتقد الحراس اننا من اولئك الفرنسيين فاوقفونا . لكن الانكشاري الذي كان معنا شهد اننا لسنا منهم ، واننا في طريق العودة من الهند وهو كان برفقتنا من البصرة . فبعد ان تسلموا الرسوم المعمول بها،اطلقوا سبيلنا ، فدخلنا المدينة ... وذهبنا الى دير الكبوشيين .

الفصل السادس عشر :
حوادث جرت اثناء مكوثنا ببغداد

كانت الفوضى تعم ارجاءالانبراطوريةالعثمانية في تلك الايام ، بسبب ثورة حسن باشا والي حلب(٦٧) ، وقد انضم اليه اغا التركمان ، بعد ان بلغته اخبار مفادها ان الصدر الاعظم قد صمم على قتله . ثم وافاهما كل من والي الشام والقدس اللذين كانا ناقمين على السلطة . فجهزوا جيشا عرمرما يقدر باربعين الف رجل ، فزحف الجيش الى قلب الانبراطورية ، متهددا العاصمة اسطنبول. وكان الجيش يدمر في طريقه كل شيء . فما كان من السلطان الا ان وعد بالعفو عن حسن باشا اذا توقف عن حركته وتمرده . فلم تنطل هذه الحيلة على حسن ، لانه كان يعلم ان وعود حكومته لا تدوم الا بقدر دعومة المصلحة . فطلب حسن اسناد الولاية السورية اليه ، وعين ثمنا لمهاونته وهو راس الصدر الاعظم .

الحقيقة ان هذه الحالة لم تكن بنت الساعة ، فقد مهد لها الفرنسيون ، وشجعها ابناء البندقية ، وذلك من اجل التخفيف من حدة الحصار على كريت ...

فكتب السلطان الى جميع الولاة يامرهم باعداد حملة قوية على المتمردين ، فيسير كل جيش من جهة ليظهر الارض التي احتلوها ... لكن هذه المحاولة باءت بالفشل .. اذ كان بعض الولاة على اتفاق سري مسبق مع حسن باشا ... وساد الاعتقاد بين العامة انه لن تعود الراحة والامن الا بموت احد الرجلين : حسن باشا او الصدر الاعظم .

في تلك الايام وصل الىبغداد الماركيزدي‌درفيل مع اشخاص اخرين ، مرسلين من قبلاهل البندقية الى العاهل الايراني . فالقي القبض عليهم وسجنوا في اسطبل ...

كان في خدمة والي بغداد عدد كبير من الاوروبيين : واحد اسباني ثلاثة من صقلية ، اثنان من مالطة ، وواحد بندقي ... بينهم من اعتنق الاسلام ، ومنهم من بقي على نصرانيته .

قبل وصولنا الى بغداد بفترة قصيرة ، وضع الوالي(٦٨) يده على دير الرهبان الكبوشيين مدفوعا من بعض ذوي النيات السيئة ، ثم امرهم بالاقامة الجبرية في بيت احد النصارى...(٦٩) وبعد مدة تمرض الوزير .. ولم يكن من اطباء احسن من

(٦٥) وهي القفة التي كانت منتشرة في بلادنا الى العشرينات من هذا القرن .

(٦٦) اي من النجف الاشرف .

(٦٧) انظر مفصل الاخبار في نهر الذهب في تاريخ حلب للغزي جـ ٣ ص ٢٨٥ وكلشن خلفا ص ٢٥٧ .

(٦٨) وهو محمد باشا الخاسكي (١٠٦٧-١٠٧٠ هـ) .

(٦٩) كلشن خلفا ص ٢٥٥ ، العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٥ : ٦٤ ورزوق عيسى : كنائس النصارى في بغداد (نشرة الاحد ٤ (١٩٢٥) ص ٦٧٩-٦٨١ .

المذكورين ، فدعاهم وطلب عونهم ، فلبوا الطلب عن طيبة خاطر ، فتحسنت حالته ، واستعاد عافيته، عندئذ امر الوالي بتعويضهم عن البيت ، واعطاهم بيتا ثانيا احسن من القديم واوسع منه ، فاتخذوا احدى غرفه التحتانية كنيسة لاقامة الصلوات والمراسيم ... وكان المسيحيون يحضرون المراسيم الدينية عندهم ... جدير بالذكر ان المسيحيين الشرقيين معتادون على الوقوف اثناء المراسيم الكنسية . فهم لا يركعون ولا يتكئون ولا يجلسون بتاتا ... وعندما يتقربون فانهم ينحنون بتواضع عميق .

بلغنا من بعض الجنود القادمين من حلب ... ان الصدر الاعظم القى القبض على السفير الفرنسي في اسطنبول ، وقطع يد كاتم اسراره ، بعد ان وقعت في يده رسائل موجهة اليه من قبل البندقيين...(٧٠)

قررنا السفر ، ففتشنا عن دليل يرافقنا الى حلب ، فوجدنا ضالتنا في الحاج بركات ، الذي كان ، والحق يقال ، امينا طيب المعشر .

(٧٠) اسم السفير دي لاهاي وسكرتيره دي فانتبله
F. Billacois : L'Empire du Grand Ture vu par un sujet du Louis XIV J. Thevenot, Paris, 1965 p. 10

الفصل السابع عشر :
سفر خطر في الصحراء العربية

تركنا بغداد مساء اليوم العاشر من تشرين الاول [١٦٥٨] انا والاب جوزيبه وقسيس نسطوري(٧١) ، غايته رومة مثلنا ... عبرنا الفرات ... واتينا الى عنه ، وكان دليلنا عانيا ، فدعانا الى بيته ...

التقينا في الطريق بقافلة الطوبجي باشي ، كان القواص الخاص يتقدمها ، وعدد من الجنود ، يرفع احدهم علم السلطان .. استقبلنا مع ابنه(٧٢) ، واوقدوا نارا وامر بتقديم القهوة ، واخذنا نتبادل اطراف الحديث ، فحثنا على الرجوع الى بغداد نظرا لما في الصحراء من اخطار ... لكننا فضلنا السير الى حلب ...

(٧١) هو القس الياس ابن القس حنا الموصلي الكلداني من عائلة بيت عمون ، سافر اكثر من مرة الى اوروبة ، وهو اول سائح شرقي الى امريكا ، دون اخبار رحلته ، وقد طبعت في المشرق ٨ (١٩٠٥) وطبعت مستلة في بيروت سنة ١٩٠٦ ، وقد اعادت السيدة ابتهاج عمر طاهر الراضي نشرها في مجلة المورد ٤ (١٩٧٥) المجلد الثاني ١٦٧-١٩٤ . نوه بها كراتكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ٢ : ٧٠١-٧٠٥ ويعقوب سركيس : مباحث عراقية ١ : ٣٣١ .

(٧٢) اسم ابنه باولو اغا (نقلا عن رحلة سبستياني المذكورة آنفا) .